تأملات ابن الجوزي من كتابه

"صيد الخاطر"

تنسيق وترتب

محمد أحمد كريم

نسخة إلكترونية

2024

يرجى إرسال الملاحظات والأراء

على

kream0066@gmail.com

1. تأملات ابن الجوزي في القرآن

65- فصل: أي لب أوغل في النظر مدح على قدر فهمه:

339- قرأت من غرائب العلم وعجائب الحكم، على بعض من يدعي العلم؛ فرأيته يتلوى من سماع ذلك، ولا يطلع على غوره، ولا يشرئب[1] إلى ما يأتي، فصرفت عن إسماعه شيئا آخر، وقلت: إنما يصلح مثل هذا الذي لب يتلقاه تلقي العطشان الماء.

340- ثم أخذت من هذه إشارة، "هي أنه" لو كان هذا يفهم ما جرى، ومدحني لحسن ما صنعت، لعظم قدره عندي، ولأريته محاسن مجموعاتي وكلامي، ولكنه لما لم أره لها أهلا، صرفتها عنه، وصدفت بنظري عنه.

وكانت الإشارة: أن الله -عز وجل- قد صنف هذه المخلوقات، فأحسن التركيب، وأحكم الترتيب، ثم عرضها على الألباب، فأي لب أوغل في النظر، مدح على قدر فهمه، فأحبه المصنف.

وكذلك أنزل القرآن يحتوي على عجائب الحكم، فمن فتشه بيد الفهم، وحادثه في خلوة الفكر، استجلب رضا المتكلم به، وحظي بالزلفى لديه، ومن كان ذهنه مستغرق الفهم بالحسيات، صرف عن ذلك المقام. قال الله عز وجل: **{سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق}** [الأعراف: 146]

159- فصل: قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا:

---

[1] يشرئب: يتطاول ليتطلع وينظر، وتأتي بمعنى يتشوف.

715- وقع بيني وبين أرباب الولايات نوع معاداة لأجل المذهب، فإني كنت في مجلس التذكير أنصر[٢]: أن القرآن كلام الله، وأنه قديم، وأقدم أبا بكر، وأتفق على أرباب الولايات من يميل إلى مذهب الأشعري، وفيهم من يميل إلى مذهب الروافض، وتمالئوا علي في الباطن. فقلت يومًا في مناجاتي للحق سبحانه وتعالى: سيدي! نواصي الكل بيدك، وما فيهم من يقدر لي على ضر، إلا أن تجريه على يده. وأنت قلت سبحانك: **{وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}** [البقرة: 102]. وطيبت قلب المبتلي بقولك: **{قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا}** [التوبة: 51].

فإن أجريت على أيدي بعضهم ما يوجب خذلاني، كان خوفي على ما نصرته أكثر من خوفي على نفسي، لئلا يقال: لو كان على حق ما خذل.

وإن نظرت إلى تقصيري وذنوبي، فإني مستحق للخذلان، غير أني أعيش بما نصرته من السنة، فأدخلني في خفارته[٣]. وقد استودعني إياك خلق من صالحي عبادك، فإن لم تحفظني بي، فاحفظني بهم.

62- فصل:أخذ السمع والبصر يكون بذهولهما عن الحقائق

330- قرأت هذه الآية: **{قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به}** [الأنعام: 46] ، فلاحت لي منها إشارة كدت أطيش منها، وذلك أنه:

إن كان عني بالآية نفس السمع والبصر، فإن السمع آلة لإدراك المسموعات، والبصر آلة لإدراك المبصرات، فهما يعرضان ذلك على القلب، فيتدبر ويعتبر؛ فإذاعرضت المخلوفات على السمع والبصر، فأوصلا إلى القلب أخباره، من أنها تدل على الخالق، وتحمل على طاعة الصانع، وتحذر من بطشه عند مخالفته.

وإن عنى معنى السمع والبصر؛ فذلك يكون بذهولهما عن حقائق ما أدركا شغلا بالهوى، فيعاقب الإنسان بسلب معاني تلك الآلات، فيرى، وكأنه ما رأى، ويسمع، وكأنه ما سمع، والقلب ذاهل عما

[٢] في الأصل: "أنظر"، وهو تصحيف.
[٣] خفارته: حفظه.

يتأذى به؛ فيبقى الإنسان خاطئا على نفسه، لا يدري ما يراد به، لا يؤثر عنده أنه يبلى، ولا تنفعه موعظة تجلى، ولا يدري أين هو، ولا ما المراد منه، ولا إلى أين يحمل؛ وإنما يلاحظ بالطبع مصالح عاجلته، ولا يتفكر في خسران آجلته، لا يعتبر برفيقه، ولا يتعظ بصديقه، ولا يتزود لطريقة، كما قال الشاعر:

الناس في غفلة والموت يوقظهم ... وما يفيقون حتى ينفد العمر

يشيعون أهاليهم بجمعهم ... وينظرون إلى ما فيه قد قبروا1

ويرجعون إلى أحلام غفلتهم ... كأنهم ما رأوا شيئا ولا نظروا

وهذه حالة أكثر الناس، فنعوذ بالله من سلب فوائد الآلات، فإنها أقبح الحالات.

تفكرت في السر الذي أوجب حذف آية الرجم القرآن[٤] لفظًا مع ثبوت حكمها إجماعًا؟! فوجدت لذلك معنيين:

أحدهما: لطف الله تعالى بعباده في أنه لا يواجههم بأعظم المشاق، بل ذكر الجلد، وستر الرجم. ومن هذا المعنى قال بعض العلماء: إن الله تعالى قال في المكروهات: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ} [البقرة: 183] ، على لفظ لم يسم فاعله، وإن كان قد علم أنه هو الكاتب. فلما جاء إلى ما يوجب الراحة، قال: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [الأنعام: 54] .

والوجه الثاني: أنه يبين بذلك فضل الأمة في بذلها النفوس قنوعًا ببعض الأدلة، فإن الاتفاق لما وقع على ذلك الحكم، كان دليلًا؛ إلا أنه ليس كالدليل المقطوع بنصه.

ومن هذا الجنس شروع الخليل عليه الصلاة والسلام في ذبح ولده بمنام، وإن كان الوحي في اليقظة أكد.

---

[٤] عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إن الله قد بعث محمدًا صلى الله عليه وسلم بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل عليه آية الرجم، قرأناها ووعيناها وعقلناها، فرجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزل الله، وإن الرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن، من الرجال والنساء، إذا قامت البينة، أو كان الحبل، أو الاعتراف، رواه البخاري "6830، مسلم 1691".

130- فصل:من يتوكل على الله فهو حسبه:

627- ضاق بي أمر أوجب غمًّا لازمًا دائمًا، وأخذت أبالغ في الفكر في الخلاص من هذه الهموم بكل حيلة وبكل وجه، فما رأيت طريقًا للخلاص، فعرضت لي هذه الآية: **{وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا}** [الطلاق: 2] ، فعلمت أن التقوى سبب للمخرج من كل غم، فما كان إلا أن هممت بتحقيق التقوى، فوجدت المخرج.

فلا نبغي لمخلوقٍ أن يتوكل أو يتسبب أو يتفكر إلا في طاعة الله تعالى، وامتثال أمره، فإن ذلك سبب لفتح كل مرتج٥. ثم أعجبه أن يكون من حيث لم يقدره المتفكر المحتال المدبر، كما قال عز وجل: **{وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ}** [الطلاق: 3] .

628- ثم يبنغي للمتقي أن يعلم أن الله -عز وجل- كافيه، فلا يعلق قلبه بالأسباب، فقد قال عز وجل: **{وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}** [الطلاق: 3].

70- فصل: الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان:

354- تأملت قوله عز وجل: **{يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان}** [الحجرات:17] ، فرأيت فيه معنى عجيبا: وهو أنهم لما وهبت لهم العقول، فتدبروا بها عيب الأصنام، وعلموا أنها لا تصلح للعبادة، فوجهوا العبادة إلى من فطر الأشياء: كانت هذه المعرفة ثمرة العقل الموهوب لهام، الذي به باينوا البهائم، فإذا أمنوا بفعلهم الذي ندب إليه العقل الموهوب، فقد جهلوا قدر الموهوب، وغفلوا عمن وهب. وأي شيء لهم في الثمرة والشجرة ليست ملكا لهم؟!

فعلى هذا، كل متعبد ومجتهد في علم وعمل إنما رأي بنور اليقظة وقوة الفهم والعقل صوابا، فوقع على الملطوب، فينبغي أن يوجه الشكر إلى من بعث له في ظلام الطبع القبس.

355- ومن هذا الفن حديث الثلاثة الذين دخلوا الغار، فانحطت عليهم صخرة، فسدت باب الغار،

٥ المرتج: المقفل.

فقالو: تعالوا نتوسل بصالح أعمالنا! فقال كل منهم فعلت كذا وكذا.

وهؤلاء: إن كانوا لاحظوا نعمة الواهب للعصمة عن الخطأ، فتوسلوا بإنعامه عليهم الذي أوجب تخصيصهم بتلك النعمة عن أبناء جنسهم، فبه توسلوا إليه.

وإن كانوا لاحظوا أفعالهم، فلمحوا جزاءها، ظنا منهم أنهم هم الذين فعلوا، فهم أهل غيبة لا حضور، ويكون جواب مسألتهم لقطع مننهم الدائمة.

356- ومثل هذه رؤية المتقي تقواه، حتى إنه يرى أنه أفضل من كثير من الخلق، وربما احتقر أهل المعاصي، وشمخ عليهم! وهذه غفلة عن طريق السلوك، وربما أخرجت.

357- ولا أقول لك: خالط الفساق احتقارا لنفسك! بل اغضب عليهم في الباطن، وأعرض عنهم في الظاهر، ثم تلمح جريان الأقدار عليهم! فأكثرهم لا يعرف من عصى! وجمهورهم لا يقصد العصيان، بل يريد موافقة هواه، وعزيز عليه أن يعصى! وفيهم من غلب عليه تلمح العفو والحلم، فاحتقر ما يأتي، لقوة يقينه بالعفو!

وهذه كلها ليست بأعذار لهم، ولكن، تلمحه أنت يا صاحب التقوى! واعلم أن الحجة عليك أوفى من الحجة عليهم؛ لأنك تعرف من تعصي، وتعلم ما تأتي، بل انظر إلى تقليب القلوب بين إصبعين، فربما دارت الدائرة، فصرت المنقطع، ووصل المقطوع. فالعجب ممن يدل بخير عمله، وينسى من أنعم ووفق.

80- فصل:ندر من تطرقه البلايا مع التقوى:

413- تأملت قوله تعالى: **{فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى}** [طه:123] : قال المفسرون: {هداي} : رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكتابي. فوجدته على الحقيقة: أن كل من اتبع القرآن والسنة، وعمل بما فيهما، فقد سلم من الضلال بلا شك، وارتفع في حقه شقاء الآخرة بلا شك، إذا مات على ذلك.

414- وكذلك شقاء الدنيا، فلا يشقى أصلا، ويبين هذا قوله تعالى: **{ومن يتق الله يجعل له مخرجا}**

[الطلاق: 2]. فإن رأيته في شدة، فله من اليقين بالجزاء ما يصير الصاب[٦] عنده عسلا، وإلا، غلب طيب العيش في كل حال.

415- والغالب أنه لا تنزل به شدة إلا إذا انحرف عن جادة التقوى، فأما الملازم لطريق التقوى، فلا آفة تطرقه، ولا بلية تنزل به، هذا هو الأغلب.

عليه، فإن قدرنا عدم الذنب، فذاك لإدخال ذهب صبره كير البلاء، حتى يخرج تبرا أحمر، فهو يرى عذوبة العذاب؛ لأنه يشاهد المبتلى في البلاء "لا" الألم. قال الشبلي: أحبك الناس لنعمائك، وأنا أحبك لبلائك.

354-فصل ينبغي تأمله: الجزاء بالمرصاد:

1553- اعلم أن الجزاء بالمرصاد: إن كانت حسنة، أو كانت سيئة. ومن الاغترار أن يظن المذنب إذا لم ير عقوبة أنه قد سومح، وربما جاءت العقوبة بعد مدة، وقل من فعل ذنبًا إلا وقوبل عليه، قال عز وجل: **{من يعمل سوءًا يجز به}** [النساء: 123] .

1554- هذا آدم عليه السلام أكل لقمة، فقد عرفتم ما جرى عليه. قال وهب بن منبه: أوحى الله تعالى إليه: ألم أصطنعك لنفسي، وأحللتك داري، وأسجدت لك ملائكتي؟! فعصيت أمري، ونسيت عهدي!! وعزتي، لو ملأت الأرض كلها مثلك يعبدون، ويسبحون في الليل والنهار، ثم عصوني؛ لأنزلتهم منازل العاصين. فنزع جبريل التاج عن رأسه، وحل ميكائيل الإكليل عن جبينه، وجذب بناصيته، فأهبط. فبكى آدم ثلاث مائة عام على جبل الهند، تجري دموعه في أودية جبالها؛ فنبتت بتلك المدامع أشجار طيبكم هذا[٧].

1555- وكذلك داود عليه السلام، نظر نظرة، فأوجبت عتابه، وبكاءه الدائم، حتى نبت العشب من دموعه.

1556- وأما سليمان عليه السلام؛ فإن قومًا اختصموا إليه، فكان هواه مع أحد الخصمين، فعوقب،

---

[٦] الصاب: شجر له عصارة شديدة المرارة.
[٧] هذه الأخبار عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الإسرائيليات.

وتغير في أعين الناس، وكان يقول: أطعموني فلا يطعم!.

1557- وأما يعقوب عليه السلام؛ فإنه يقال: إنه ذبح عجلًا بين يدي أمه، فعوقب بفراق يوسف.

1558- وأما يوسف عليه السلام، فأخذ بالهم، وكل واحد من إخوته ولد له اثنا عشر ولدًا، ونقص هو ولدًا لتلك الهمة.

1559- وأما أيوب عليه السلام؛ فإنه قصر في الإنكار على ملك ظالم لأجل خيل كانت في ناحيته، فابتلي.

1560- وأما يونس عليه السلام، فخرج عن قومه بغير إذن، فالتقمه الحوت.

1561- وأوحى الله عز وجل إلى أرميا: إن قومك تركوا الأمر، الذي أكرمت به آباءهم، وعزتي، لأهيجن عليهم جنودًا لا يرحمون بكاءهم. فقال: يارب! هم ولد خليلك إبراهيم، وأُمَّة صفيّك موسى، وقوم نبيك داود. فأوحى الله تعالى إليه: إنما أكرمت إبراهيم وموسى وداود بطاعتي، ولو عصوني، لأنزلتهم منازل العاصين.

1562- ونظر بعض العباد شخصًا مستحسنًا، فقال له شيخه: ما هذا النظر؟! ستجد غبة[8]. فنسي القرآن بعد أربعين سنةً.

1563- وقال آخر: قد عبت شخصًا قد ذهب بعض أسنانه، فانتثرت أسناني!

ونظرت إلى امرأة لا تحل، فنظر إلى زوجتي من لا أريد!

1564- وكان بعض العاقين ضرب أباه، وسحبه إلى مكان؛ فقال له الأب: حسبك! إلى ها هنا سحبت أبي!!

1565- وقال ابن سيرين: عيرت رجلًا بالإفلاس، فأفلست. ومثل هذا كثير.

---

[8] غبه: عاقبته.

1566- ومن أعجب ما سمعت فيه عن الوزير ابن جهير الملقب بالنظام[9]: أن المقتفي غضب عليه، وأمر بأن تؤخذ منه عشرة آلاف دينار، فدخل عليه أهله محزونين، وقالوا له: من أين لك عشرة آلاف دينار؟! فقال: ما يؤخذ مني عشرة ولا خمسة ولا أربعة. قالوا: من أين لك؟ قال: إني ظلمت رجلًا؛ فألزمته ثلاثة آلاف، فما يؤخذ مني أكثر منها؛ فلما أدى ثلاثة آلاف دينار، وقع الخليفة بإطلاقه ومسامحته في الباقي.

1567- وأنا أقول عن نفسي: ما نزلت بي آفة أو غم أو ضيق صدر، إلا بزلل أعرفه، حتى يمكنني أن أقول: هذا بالشيء الفلاني. وربما تأولت فيه بعد، فأرى العقوبة. فينبغي للإنسان أن يترقب جزاء الذنوب، فقل أن يسلم منه.

1568- وليجتهد في التوبة؛ فقد روي في الحديث: "ما من شيء أسرع لحاقًا بشيء من حسنة حديثة لذنب قديم"[10]، ومع التوبة يكون خائفًا من المؤاخذة، متوقعًا لها؛ فإن الله تعالى قد تاب على الأنبياء عليهم السلام، وفي حديث الشفاعة: "يقول آدم: ذنبي، ويقول إبراهيم وموسى: ذنبي".

1569- فإن قال قائل: قوله تعالى: {مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} [النساء: 123] : خبر، فهو يقتضي ألا يجاوز عن مذنب، وقد عرفنا قبول التوبة، والصفح عن الخاطئين؟

فالجواب: من وجهين:

أحدهما: أن يحمل على من مات مُصِرًّا، ولم يتب؛ فإن التوبة تجب ما قبلها.

والثاني: أنه على إطلاقه، وهو الذي أختاره أنا، وأستدل بالنقل والمعنى: أما النقل؛ فإنه لما نزلت هذه الآية، قال أبو بكر: يا رسول الله! أو نجازى بكل ما نعمل؟ فقال: "ألست تمرض؟ ألست تحزن؟ أليس يصيبك اللأواء؟ فذلك ما تجزون به"[11].

وأما المعنى، فإن المؤمن إذا تاب وندم، كان أسفه على ذنبه في كل وقت أقوى من كل عقوبة؛ فالويل

---

[9] هو المظفر بن علي بن محمد بن جهير المتوفى سنة "549هـ"، ولي الوزارة للمقتفي سبعة أعوام ثم عزل. كما أفادنيه الأخ محمد علي بحري فجزاه الله خيرًا، وقد جاء في الأصل "ابن حصير" وهو تصحيف.

[10] رواه الحكيم الترمذي، والطبراني في الكبير وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنه موقوفًا عليه.

[11] رواه الترمذي "3039"، وأحمد "1/ 11"، وابن حيان "2910" عن أبي بكر رضي الله عنه.

لمن عرف مرارة الجزاء الدائم، ثم آثر لذة المعصية لحظة!

312- فصل:وهب الله تعالى العقل للإنسان ليثبت عليه الحجة (ص424):

1382- نظرت في قول الله تعالى: {**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ**} ثم قال: {**وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ**} [الحج: 18] ... فرأيت الجمادات كلها قد وصفت بالسجود، واستثنى من العقلاء! فذكرت قول بعضهم:

ما جحد الصامت من أنشأه ... ومن ذوي النطق أتى الجحود

فقلت: إن هذه لقدرة عظيمة، يوهب عقل للشخص، ثم تسلب فائدته! وإن هذا لأقوى دليل على قادر قاهر؛ وإلا فكيف يحسن من عاقل ألا يعرف بوجوده وجود من أوجده؟! وكيف ينحت صنمًا بيده ثم يعبده؟!

غير أن الحق سبحانه وتعالى وهب لأقوام من العقل ما يثبت عليهم الحجة، وأعمى قلوبهم كما شاء عن المحجة[١٢].

307- فصل:الحقّ منزّهٌ عن العبث:

1348- تأملت على قوم يدعون العقول، ويعترضون على حكمة الخالق! فينبغي أن يقال لهم: هذا الفهم الذي دلكم على رد حكمته، أليس هو من منحه؟!

فأعطاكم الكمال، ورضي لنفسه بالنقص؟! هذا هو الكفر المحض، الذي يزيد في القبح على الجحد.

1349- فأول القوم إبليس؛ فإنه رأى بعقله أن جوهر النار أشرف من جوهر الطين، فرد حكمة الخالق، ومر على هذا خلق كثير من المعترضين، مثل ابن الراوندي، والبصري[١٣] وهذا المعري

---

[١٢] المحجة: الطريق المبينة الواضحة.

[١٣] العلوي البصري صاحب الزنج، ذكر بعض الناس أنه كان قبل خروجه يذكر أنه من عبد قيس، ثم من أنمار وكان اسمه أحمد، فلما خرج سنة "٢٥٥هـ" تسمى عليًّا، وانتسب إلى الحسين بن علي بن أبي طالب، قتل سنة "٢٧٠هـ".

اللعين، يقول: كيف يعاب ابن الحجاج[14] بالسخف، والدهر أقبح فعلًا منه؟! أترى يعني به الزمان؟! كلا، فإن ممر الأوقات لا يفعل شيئًا؛ وإنما هو تسفيف[15]! وكان يتسعجل الموت، ظنًّا منه أنه يستريح! وكان يوصي بترك النكاح، والنسك! ولا يرى في الإيجاد حكمة إلا العناء والتعب! ومصير الأبدان إلى البلى!!

وهذا لو كان كما ظن، كان الإيجاد عبثًا، والحق منزه عن العبث، قال تعالى: **{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا}** [ص: ٢٧] ، فإذا كان ما خلق لنا لم يخلق عبثًا، أفنكون نحن –ونحن مواطن معرفته ومحال تكليفه– قد وجدنا عبثًا؟!

1350– ومثل هذا الجهل إنما يصدر ممن ينظر في قضايا العقول التي يحكم بها على الظواهر، مثل أن يرى مبنيًّا ينقض، والعقل بمجرده لا يرى ذلك حكمة، ولو كشفت له حكمة ذلك؛ لعلم أنه صواب، كما كشف لموسى مراد الخضر في خرق السفينة، وقتل الغلام.

ومعلوم أن ذبح الحيوان، وتقطيع الرغيف، ومضغ الطعام، لا يظهر له فائدة على الإطلاق، فإذا علم أنه غذاء لبدن من هو أشرف بدنًا من المذبوح، حسن ذلك الفعل.

وا عجبًا! أوما تقضي العقول بوجوب طاعة الحكيم، الذي تعجز عن معرفة حكم مخلوقاته؟! فكيف تعارضه في أفعاله؟! نعوذ بالله من الخذلان.

154– فصل: أكل الأرباح في الصبر:

701– قرأت سورة يوسف عليه السلام، فتعجبت من مدحه عليه السلام على صبره، وشرح قصته للناس، ورفع قدره بترك ما ترك. فتأملت خبيئة الأمر، فإذا هي مخالفة للهوى المكروه.

فقلت: واعجبًا! لو وافق هواه، من كان يكون؟! ولما خالفه، لقد صار أمرًا عظيمًا، تضرب الأمثال بصبره، ويفتخر على الخلق باجتهاده، وكل ذلك قد كان بصبر ساعة، فيا له عزًّا وفخرًا [أن تملك

[14] الحسين بن أحمد بن الحجاج البغدادي، شاعر سفيه أمير الفحش، له باع من الغزل، أما الزطاطة والتفحش فهو حامل لوائها، توفي سنة "٣٩١هـ".
[15] تهافت وفساد.

نفسك1] ساعة الصبر عن المحبوب [وهو قريب]!

وبالعكس منه حالة آدم في موافقته هواه، لقد عادت نقيصة في حقه أبدًا، لولا التدارك: {فَتَابَ عَلَيْهِ} [البقرة: 37] !

فلتلمحوا –رحمكم الله– عاقبة الصبر ونهاية الهوى! فالعاقل من ميز بين الأمرين، الحلوين والمرين، فإن عدل ميزانه، ولم تمل به كفة الهوى، رأى كل الأرباح في الصبر، وكل الخسران في موافقة النفس، وكفى بهذا موعظة في مخالفة الهوى لأهل النهى، والله الموفق.

111– فصل:على العاقل أن يحذر الهوى:

526– رأيت كثيرًا من الناس يتحرزون من رشاش نجاسة، ولا يتحاشون من غيبة! ويكثرون من الصدقة، ولا يبالون بمعاملات الربا! ويتهجدون بالليل، ويؤخرون الفريضة عن الوقت في أشياء يطول عددها، من حفظ فروع، وتضييع أصول، فبحثت عن سبب ذلك؟ فوجدته من شيئين: أحدهما: العادة. والثاني: غلبة الهوى في تحصيل المطلوب، فإنه قد يغلب، فلا يترك سمعًا ولا بصرًا.

527– ومن هذا القبيل: أن إخوة يوسف قالوا –حين سمعوا صوت المنادي: {إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ} [يوسف: 70] : **{لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ}** [يوسف: 73] ، فجاء في التفسير: أنهم لما دخلوا مصر، كمموا أفواه

إبلهم، لئلا تتناول ما ليس لهم، فكأنهم قالوا: قد رأيتم ما صنعنا بإبلنا، فكيف نسرق؟! ونسوا هم تفاوت ما بين الورع واختطاف أكلة لا يملكونها، وبين إلقاء يوسف عليه السلام في الجب وبيعه بثمن بخس!!

528– وفي الناس من يطيع في صغار الأمور، دون كبارها، وفيما كلفته عليه خفيفة أو معتادة، وفيما لا ينقص شيئًا من عادته في مطعم وملبس، نرى أقوامًا يأخذون الربا، ويقول أحدهم: كيف يراني عدوي بعد أن بعت داري، أو تغير ملبوسي ومركوبي؟!

529– ونرى أقوامًا يوسوسون في الطهارة، ويستعملون الكثير من الماء، ولا يتحاشون من غيبة!

وأقوامًا يستعملون التأويلات الفاسدة في تحصيل أغراضهم، مع علمهم أنها لا تجوز!

حتى إني رأيت رجلًا من أهل الخير والتعبد، أعطاه رجل مالًا ليبني به مسجدًا، فأخذه لنفسه، وأنفق عوض الصحيح قراضة[١٦]، فلما احتضر، قال لذلك الرجل: اجعلني في حل، فإني فعلت كذا وكذا!! ونرى أقوامًا يتركون الذنوب لبعدهم عنها؛ فقد ألفوا الترك، وإذا قربوا منها، لم يتمالكوا، وفي الناس من هذه الفنون عجائب يطول ذكرها.

530- وقد علمنا أن خلقًا من علماء اليهود كانوا يحملون ثقل التعبد في دينهم، فلما جاء الإسلام، وعرفوا صحته، لم يطيقوا مقاومة أهوائهم في محو رئاستهم.

وكذلك قيصر؛ فإنه عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدليل، ثم لم يقدر على مقاومة هواه وترك ملكه[١٧].

فالله الله في تضييع الأصول، ومن إهمال سرح الهوى، فإنه إن أهملت ماشيته، نفشت في زروع التُّقَى.

531- وما مثل الهوى إلا كسبع في عنقه سلسلة، فإن استوثق منه ضابطه، كفه، وربما لاحت له شهواته الغالبة عليه، فلم تقاومها السلسلة، فأفلت، على أن من الناس من يكف هواه بسلسلة، ومنهم من يكفه بخيط! فينبغي للعاقل أن يحذر شياطين الهوى، وأن يكون بصيرًا بما يقوى عليه من أعدائه، وبمن يقوى عليه.

---

[١٦] القراضة: الدنانير أو الدراهم المكسورة، وقيمتها أقل من الصحيحة.

[١٧] انظر حديثه في البخاري "7"، ومسلم "1773" عن ابن عباس عن أبي سفيان رضي الله عنه.

2. تأملات ابن الجوري في الخلق

31- فصل: غلبة الجهل والهوى على أكثر الناس:

108- تأملت المراد من الخلق، فإذا هو الذل، واعتقاد التقصير والعجز

161- تأملت الأرض ومن عليها بعين فكري، فرأيت خرابها أكثر من عمرانها، ثم نظرت في المعمور منها، فوجدت الكفار مستولين على أكثره، ووجدت أهل الإسلام في الأرض قليلًا بالإضافة إلى الكفار.

162- ثم تأملت المسلمين، فرأيت الأكساب قد شغلت جمهورهم عن الرازق، وأعرضت بهم عن العلم الدال عليه.

163- فالسطان مشغول بالأمر والنهي، والذات المعارضة له، ومياه أغراضه جارية لا سكر[١٨] لها، ولا يتلقاه أحد بموعظة، بل بالمدحة التي تقوي هوى النفس!!

وَإِنَّمَا ينبغي أن تقاوم الأمراض بأضدادها، كما قال عمر بن المهاجر: قال لي عمر بن عبد العزيز: إذا رأيتني قد حدت عن الحق، فخذ بثيابي، وهزني، وقل: مالك يا عمر؟! وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: رحم الله من أهدى إلينا عيوبنا، فأحوج الخلق إلى النصائح والمواعظ السلطان.

---

[١٨] السكر: آلة تتحكم بجريان الماء، فيسد بها ويفتح، وهو حرف ما زال مستعملًا في الشام

164- وأما جُنُودُهُ، فجمهورهم في سكر الهوى، وزينة الدنيا، وقد انضاف إلى ذلك الجهل، وعدم العلم، فلا يؤلمهم ذنب، ولا ينزعجون من لبس حرير، أو شرب خمر، حتى ربما قال بعضهم: إيش يعمل الجندي؟! أيلبس القطن؟ ثم أخذهم للأشياء من غير وجهها، فالظلم معهم كالطبع!

165- وأرباب البوادي قد غمرهم الجهل، وكذلك أهل القرى، [ماأكثر] تقلبهم في الأنجاس، وتهوينهم لأمر الصلوات!! وربما صلت المرأة منهن قاعدة!

166- ثم نظرت في التجار، فرأيتهم قد غلب عليهم الحرص، حتى لا يرون سوى وجوه الكسب، كيف كانت، وصار الربا في معاملاتهم فاشيًا، فلا يبالي أحدهم من أين تحصل له الدنيا! وهم في باب الزكاة مفروطون، ولا يستوحشون من تركها، إلا من عصم الله.

167- ثم نظرت في أرباب المعاش، فوجدت الغش في معاملاتهم عامًّا وكذلك والتطفيف والبخس، وهم مع هذا مغمورون بالجهل!

168- ورأيت عامة من له ولد يشغله ببعض هذه الأشغال طلبًا للكسب قبل أن يعرف ما يجب عليه وما يتأدب به.

169- ثم نظرت في أحوال النساء، فرأيتهم قليلات الدين، عظيمات الجهل، ما عندهن من الآخرة خبر إلا من عصم الله، فقلت: واعجبًا! فمن بقي لخدمة الله عز وجل ومعرفته؟!

170- فنظرت، فإذا العلماء، والمتعلمون، والعباد، والمتزهدون، فتأملت العباد والمتزهدين، فرأيت جمهورهم يتعبد بغير علم، ويأنس إلى تعظيمه، وتقبيل يده.

وكثرة أتباعه، حتى إن أحدهم لو اضطر أن يشتري حاجة من السوق لم يفعل، لئلا ينكسر جاهه! ثم تترقى بهم رتبة الناموس إلى ألا يعودوا مريضًا، ولا يشهدوا جنازة، إلا أن يكون عظيم القدر عندهم.

ولا يتزاورون، بل ربما ضن بعضهم على بعض [بلقاءٍ] ، فقد صارت النواميس[١٩] كالأوثان، يعبدونها ولا يعلمون! وفيهم من يقدم على الفتوى بجهل، لئلا يخل بناموس التصدر! ثم يعيبون العلماء

---

[١٩] النواميس: العادات والأعراف.

لحرصهم على الدنيا، ولا يعلمون أن المذموم من الدنيا ما هم فيه لا تناول المباحات!

171- ثم تأملت العلماء والمتعلمين، فرأيت القليل من المتعلمين عليه أمارة النجابة؛ لأن أمارة النجابة طلب العلم للعمل به، وجمهورهم يطلب منه ما يصيره شبكة للكسب: إما ليأخذ قضاء مكان، أو ليصير قاضي بلد، أو قدر ما يتميز به عن أبناء جنسه، ثم يكتفي.

172- ثم تأملت العلماء، فرأيت أكثرهم يتلاعب به الهوى، ويستخدمه، فهو يؤثر ما يصده العلم عنه، ويقبل على ما ينهاه، ولا يكاد يجد ذوق معاملة الله سبحانه؛ وإنما همته أن يقول [وحسب].

173- إلا أن الله لا يخلي الأرض من قائم له بالحجة، جامع بين العلم والعمل، عارف بحقوق الله تعالى، خائف منه، فذلك قطب الدنيا، ومتى مات، أخلف الله عوضه، وربما لم يمت حتى يرى من يصلح للنيابة عنه في كل نائبة، ومثل هذا لا تخلو الأرض منه، فهو بمقام النبي في الأمة.

وهذا الذي أصفه يكون قائمًا بالأصول، حافظًا للحدود، وربما قل علمه، أو قلت معاملته، فأما الكاملون في جميع الأدوات، فيندر وجودهم، فيكون في الزمان البعيد منهم واحد.

- فصل: من عظم الله عظم الله قدره:

638- إخواني! اسمعوا نصيحة من قد جرب وخبر. إنه بقدر إجلالكم الله عز وجل يجلكم، وبمقدار تعظيم قدره واحترامه يعظم أقدراكم وحرمتكم.

639- ولقد رأيت -والله- من أنفق عمره في العلم، إلى أن كبرت سنه، ثم تعدى الحدود، فهان عند الخلق، وكانوا لا يلتفتون إليه، مع غزارة علمه، وقوة مجاهدته.

ولقد رأيت من كان يراقب الله -عز وجل- في صبوته مع قصوره بالإضافة إلى ذلك العالم -فعظم الله قدره في القلوب، حتى علقته[20] النفوس، ووصفته بما يزيد على ما فيه من الخير.

ورأيت من كان يرى الاستقامة إذا استقام: فإذا زاغ، مال عنه اللطف. ولولا عموم الستر، وشمول رحمة الكريم، لافتضح هؤلاء المذكورون. غير أنه في الأغلب تأديب أو تلطب في العقاب، كما قيل:

ومن كان في سخطه مُحْسِنًا ... فَكَيْفَ يَكُوْنُ إِذَا مَا رَضِـي

غير أن العدل لا يحابي، وحاكم الجزاء لا يجور، وما يضيع عند الأمين شيء.

15. فصل: حِيَلُ الشيطان ومكرُه

38- رأيت من أعظم حيل الشيطان ومكره أن يحيط أرباب الأموال بالآمال، والتشاغل باللذات القاطعة عن الآخرة وأعمالها! فإذا "شغلهم" بالمال تحريضًا على جمعه، وحثًّا على تحصيله، أمرهم بحراسته بخلًا به، فذلك من متين حيله، وقوي مكره.

39- ثم دفن في هذا الأمر من دقائق الحيل الخفية أن خوف من جمعه المؤمنين، فنفر طالب الآخرة منه، وبادر التائب يخرج ما في يده.

كثيرًا من الناس في وجودهم كالعدم

10- فصل: متى رأيت معاقبًا فاعلم أنه لذنوب.

23- خَطَرَتْ لي فكرة فيما يجري على كثير من العالم من المصائب الشديدة والبلايا العظيمة، التي تتناهى إلى نهاية الصعوبة، فقلت: سبحان الله! إن الله أكرم الأكرمين، والكرم يوجب المسامحة، فما وجه هذه المعاقبة؟!

فتفكَّرْتُ فرأيت كثيرًا من الناس في وجودهم كالعدم، لا يتصفحون أدلة الوحدانية، ولا ينظرون في أوامر الله تعالى ونواهيه؛ بل يجرون على عاداتهم كالبهائم، فإن وافق الشرع مرادهم [فبها]، وإلا؛ فمعولهم على أغراضهم! وبعد حصول الدينار لا يبالون، أمن حلال كان أم من حرام؟ وإن سهلت عليهم الصلاة، فعلوها، وإن لم تسهل، تركوها! وفيهم من يبارز بالذنوب العظيمة، مع نوع معرفة المناهي.

وربما قويت معرفة عالم منهم، وتفاقمت ذنوبه!!

فعلمت أن العقوبات -وإن عظمت- دون إجرامهم؛ فإذا وقعت عقوبة لتمحص ذنبًا، صاح مستغيثهم:

---

[٢٠] علقته: أحببته.

ترى هذا بأيِّ ذنبٍ؟! وينسى ما قد كان مما تتزلزل الأرض لبعضه!

وقد يهان الشيخ في كبرهِ حتى ترحمه القلوب، ولا يدري أن ذلك لإهماله حق الله تعالى في شبابه! فمتى رأيت معاقبًا؛ فاعلم أنه لذنوبٍ.

حال أهل العلم عند كبرهم

42- وإني تأملت على أكثر أهل الدين والعلم هذه الحال، فوجدت العلم شغلهم عن المكاسب في بداياتهم، فلما احتاجوا إلى قوام نفوسهم ذلوا، وهم أحق بالعز.

43- وقد كانوا قديمًا يكفيهم بيت المال فضلات الإخوان، فلما عدمت في هذا الأوان، لم يقدر متدين على شيءٍ إلا ببذل شيء من دينه، وليته قدر، فربما تلف الدين، ولم يحصل له شيء.

44- فالواجب على العاقل أن يحفظ ما معه، وأن يجتهد في الكسب ليربح مداراة ظالم أو مداهنة جاهل، ولا يلتفت إلى ترهات المتصوفة، الذين يدعون في الفقر ما يدعون، فما الفقر إلا مرض العجزة، وللصابر على الفقر ثواب الصابر على المرض، اللهم! إلا أن يكون جبانًا عن التصرف، مقتنعًا بالكفاف؛ فليس ذلك من مراتب الأبطال، بل هو من مقامات الجبناء الزهاد.

وأما الكاسب ليكون المعْطِيَ لا المُعْطَى، والمتصدق لا المتصدق عليه، فهي من مراتب الشجعان الفضلاء، ومن تأمل هذا، علم شرف الغنى، ومخاطرة الفقر.

16- فصل: حظوظ الفضلاء من الدنيا:

45- تأملت أحوال الفضلاء، فوجدتهم في الأغلب قد بخسوا من حظوظ الدنيا، ورأيت الدنيا غالبًا في أيدي أهل النقائص.

46- فنظرت في الفضلاء، فإذا هم يتأسفون على ما فاتهم مما ناله أولو النقص، وربما تقطع بعضهم أسفًا على ذلك، فخاطبت بعض المتأسفين، فقلت له: ويحك! تدبر أمرك، فإنك غالط من وجوه:

أحدها: أنه إن كانت لك همة في طلب الدنيا، فاجتهد في طلبها، تربح التأسف على فوتها، فإن قعودك متأسفًا على ما ناله غيرك –مع قصور اجتهادك– غاية العجز.

والثاني: أن الدنيا إنما تراد لتعبر لا لتعمر، وهذا هو الذي يدلك عليه علمك، ويبلغه فهمك، وما يناله أهل النقص من فضولها[٢١] يؤذي أبدانهم وأديانهم، فإذا عرفت ذلك، ثم تأسفت على فقد ما فقده أصلح لك، كان تأسفك عقوبة لتأسفك

18– فصل: ميزان العدل لايحابي:

48– من تأمل أفعال البارئ سبحانه، رآها على قانون العدل، وشاهد الجزاء مرصدًا للمجازي، ولو بعد حين، فلا ينبغي أن يغتر مسامح، فالجزاء قد يتأخر.

49– ومن أقبح الذنوب التي قد أعد لها الجزاء العظيم: الإصرار على الذنب، ثم يصانع صاحبه باستغفار وصلاة وتعبد، وعنده أن المصانعة تنفع!.

50– وأعظم الخلق اغترارًا من أتى ما يكرهه الله، وطلب منه ما يحبه هو، كما روي في الحديث: "والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني"[٢٢].

22– فصل:حوادث الدنيا وحوادث الآخرة:

96– تأملت أمر الدنيا والآخرة، فوجدت حوادث الدنيا حسية طبعية وحوادث الآخرة إيمانية يقينية. والحسيات أقوى جذبًا لمن يقو علمه ويقينه.»

97– والحوادث إنما تبقى بكثرة أسبابها: فمخالطة الناس، ورؤية المستحسنات، والتعرض بالملذوذات، يقوي حوادث الحس.

والعزلة والفكر، والنظر في العلم، يقوي حوادث الآخرة.

ويبين هذا: بأن الإنسان إذا خرج يمشي في الأسواق، ويبصر زينة الدنيا، ثم دخل إلى المقابر، فتفكر،

---

[٢١] فضول الدنيا: حظوظها ونعيمها.

[٢٢] رواه الترميذي "2459" وابن ماجه "4260" وأحمد "4/ 124" عن شداد بن أوس، وأوله: الكيس من دان نفسه ... "ضعيف".»

ورق قلبه، فإنه يحس بين الحالتين فرقًا بينًا، وسبب ذلك التعرض بأسباب الحوادث.

98- فعليك بالعزلة، والذكر، والنظر في العلم، فإن العزلة حمية، والفكر والعلم أدوية، والدواء مع التخليط لا ينفع، وقد تمكنت منك أخلاط! المخالطة للخلق والتخليط[٢٣] في الأفعال، فليس لك دواء إلا ما وصفت لك.

فأما إذا خالطت الخلق، وتعرضت للشهوات، ثم رمت صلاح القلب، رمت الممتنع.

368- فصل: اغتنام الزمان:

1633- رأيت العادات قد غلبت الناس في تضييع الزمان، وكان القدماء يحذرون من ذلك.

1634- قال الفضيل: أعرف من يعد كلامه من الجمعة إلى الجمعة.

1635- ودخلوا على رجل من السلف، فقالو: لعلنا شغلناك؟ فقال: أصدقكم، كنت أقرأ، فتركت القراءة لأجلكم.

1636- وجاء رجل من المتعبدين إلى سري السقطي، فرأى عنده جماعَةً، فقال: صرت مناخ البطالين؟ ثم مضى ولم يجلس.

1637- ومتى لان المزور؛ طمع فيه الزائر، فأطال الجلوس، فلم يسلم من أذى.

1638- وقد كان جماعة قعودًا عند معروف، فأطالوا، فقال: إن ملك الشمس لا يفتر في سوقها، أفما تريدون القيام؟!

1639- وممن كان يحفظ اللحظات عامر بن عبد قيس، قال له رجل: قف أكلمك. قال: فأمسك الشمس.

1640- وقيل لكرز بن وبرة[٢٤]: لو خرجت إلى الصحراء؟ فقال: يبطل الروزجار[٢٥].

---

[٢٣] التخليط: فعل الحسن والقبيح، وعدم التمييز بينهما.

[٢٤] الحارثي الكوفي نزيل جرجان، تابعي عابد زاهد.

1641- وكان داود الطائي يتسفت الفتيت[٢٦]، ويقول: بين سف الفتيت وأكل الخبز قراءة خمسين آية.

1642- وكان عثمان الباقلاوي[٢٧] دائم الذكر لله تعالى؛ فقال: إني وقت الإفطار أحس بروحي كأنها تخرج، لأجل اشتغال بالأكل عن الذكر.

1643- وأوصى بعض السلف أصحابه، فقال: إذا خرجتم من عندي، فتفرقوا، لعل أحدكم يقرأ القرآن في طريقه، ومتى اجتمعتم، تحدثتم.

1644- واعلم أن الزمان أشرف من أن يضيع منه لحظة: فإن في "الصحيح". عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه قال: "من قال: سبحان الله العظيم وبحمده؛ غرست له بها نخلة في الجنة"[٢٨] فكم يضيع الآدمي من ساعات يفوته فيها الثواب الجزيل!

وهذه الأيام مثل المزرعة، فكأنه قيل للإنسان: كلما بذرت حبة، أخرجنا لك ألف كر[٢٩]، فهل يجوز للعاقل أن يتوقف في البذر ويتوانى؟!

1645- والذي يعين على اغتنام الزمان: الانفراد والعزلة مهما أمكن، والاختصار على السلام أو حاجة مهمة لمن يلقى، وقلة الأكل؛ فإن كثرته سبب النوم الطويل وضياع الليل، ومن نظر في سير السلف، وآمن بالجزاء، بان له ما ذكرته.

92- فصل: البدار البدار قبل الفوات:

456- رأيت عموم الخلائق يدفعون الزمان دفعًا عجيبًا: إن طال الليل، فبحديث لا ينفع، أو بقراءة كتاب فيه غزاة وسمر! وإن طال النهار، فبالنوم! وهم في أطراف النهار على دجلة أو في الأسواق! فشبهتهم بالمتحدثين في سفينة، وهي تجري بهم، وما عندهم خبر!

---

[٢٥] والروزجار: وهو الذي عمل في الطين بالمجرفة انظر: حاشية الفصل "341". وجاء في حاشية التمثيل والمحاضرة ص "200": الروزجار والروزكار: الخدمة أو الحرفة.

[٢٦] الفتيت: الخبز اليابس المبلل بالماء

[٢٧] عثمان بن عيسى، أبو عمرو الباقلاوي والباقلاني، "نسبة إلى الباقلاء، وهو الفول في عرف البغداديين"، أحد الزهاد العباد، توفي سنة "402هـ".

[٢٨] رواه الترمذي "2364و 3465".

[٢٩] الكر وحدة قياس = 2925 كغ.

457- ورأيت النادرين قد فهموا معنى الوجود، فهم في تعبئة الزاد، والتأهب للرحيل، إلا أنهم يتفاوتون، وسبب تفاوتهم قلة العلم وكثرته، بما ينفق في بلد الإقامة، فالمتيقظون منهم يتطلعون إلى الأخبار بالنافق هناك، فيستكثرون منه، فيزيد ربحهم، والغافلون منهم يحملون ما اتفق، وربما خرجوا لا مع خفير[٣٠]، فكم ممن قد قطعت عليه الطريق فبقي مفلسًا!

فالله الله في مواسم العمر! والبدار البدار قبل الفوات! واستشهدوا العلم، واستبدلوا الحكمة، ونافسوا الزمان، وناقشوا النفوس، واستظهروا بالزاد، فكان قد حَدَا الحادي، فلم يفهم صوته من وقع دمع الندم.

127- فصل: البشر كلهم في حرب:

617- رأيت الخلق كلهم في صف محاربة، والشياطين يرمونهم بنبل الهوى، ويضربونهم بأسياف اللذة، فأمّا المخلطون، فصرعى من أول وقت اللقاء، وأما المتقون، ففي جهد جهيد من المجاهدة! فلابد مع طول الوقوف في المحاربة من جراح، فهم يجرحون ويداوون، إلا أنهم من القتل محفوظون، بلى، إن الجراحة في الوجه شين باق، ليحذر ذلك المجاهدون.

---

[٣٠] الخفير: الحارس.

3. مشاهدات ابن الجوزي

82. فصل: إنما عزلة العالم عن الشر

418- بكرت يوما أطلب الخلوة إلى جامع الرصافة[٣١]، فجعلت أجول وحدي وأتفكر في ذلك المكان، ومن كان به من العلماء والصالحين، ورأيت أقواما قد جاوزوا فيه، فسألت أحدهم: منذ كم أنت ها هنا؟ فأومأ إلى قريب من أربعين سنة!

فرأيته في بيت كثير الدرن والوسخ، وجعلت أتفكر في حبسه لنفسه عن النكاح هذه المدة!!

فأخذت النفس تحسن ذلك، وتذم الدنيا والاغترار بها، فأقبل العلم ينكر على النفس، ونهض الفهم لحقائق الأمور، وموضوع الشرع يقوي ما قال العلم، فتنحل من ذلك.

419 [إلى] أن قلت للنفس: **اعلمي أن هؤلاء على ضربين:**

منهم من يجاهد نفسه في الصبر على هذه الأحوال، فتفوته فضائل المخالطة لأهل العلم، والعمل، وطلب الولد، ونفع الخلق، وانتفاع نفسه بمجالسة أهل الفهم، فيحدث له من نفسه حالة تشابه فيها الوحش، فتؤثر الانفراد لنفس الانفراد، وربما: يبس الطبع، وساء الخلق، وربما: حدث من حبس مائه المحتقن سمية أفسدت بدنه وعقله، وربما: أورثته الخلوة وسوسة، وربما: ظن أنه من الأولياء، واستغنى بما يعرفه، وربما: خيل له الشيطان أشياء من الخيالات، وهو يعدها كرامات!! وربما: ظن أن الذي هو فيه الغاية، ولا يدري أنه إلى الكراهة أقرب، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نهى أن يبيت

---

[٣١] الرصافة: الجانب الشرقي في بغداد، والكرخ الجانب الغربي، يفصل بينهما نهر دجلة.

الرجل وحده"[٣٢]، وهؤلاء كل منهم يبيت وحده!.

و"نهى عن التبتل"[٣٣]، وهذا تبتل!، و "نهى عن الرهبانية"[٣٤].

وهذا من خفي خدع إبليس التي يوقع بها في ورطات الضلال بألطف وجه وأخفاه.

و**الضرب الثاني**: مشايخ قد فنوا، فانقطعوا ضرورة، إذ ليس لأحدهم مأوى، فهم في مقام الزمنى6.

وإن كان **الضرب الأول** قد قطعوا حبل نفوسهم في العلم والعمل والكسب، وتعلقت هممهم بفتوح يطرق عليهم الباب، فرضوا بالعمى بعد البصر، وبالزمن بعد الإطلاق.

420- فقالت لي النفس: لا أرضى هذا الذي تقوله، فإنك إنما تميل إلى إيثار

نكاح المستحسنات والمطاعم المشتهيات؛ فإذا لم تكن من أهل التعبد، فلا تطعن فيهم.

فقلت لها: إن فهمت، حدثتك، وإن كنت تقلدين صور الأحوال، فلا فهم لك.

أما المستحسنات، فإن المقصود من النكاح أشياء: منها: طلب الولد، ومنها: شفاء النفس بإخراج الفضلة المؤذية، وكمال خروجها لا يكون إلا بوجود المستحسن! واعتبر هذا بالوطء دون الفرج، فإنه يخرج من الفضلات ما لا يخرج بالوطء من الفرج! وبتمام خروج تلك الفضلة تفرغ النفس عن شواغلها، فتدري أين هي، كما نأمر القاضي بالأكل قبل الحكم، وننهاه عن الحكم وهو غضبان أو حاقن. وبكمال بلوغ هذا الغرض يكون كمال الولد لتمام النطفة التي تخلق منها، ثم للنفس حظ، فهي1 تستوفيه استيفاء الناقة حظها من العلف في السفر، وذلك يعين على سيرها.

وأما المطاعم، فالجاهل من يطلبها لذاتها أو لنفس لذاتها، وإنما المراد إصلاح "النفس" لجمع همها، ونيل مرادها من غرضها الصارف لها عن الفكر في هواها.

421- وإذا تأملت حال السرب الأول، رأيت من هذا عجبا: فإن النبي صلى الله عليه وسلم اختار

---

[٣٢] رواه أحمد "٢/ ٩١" عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال الهيثمي في المجمع "٨/ ١٠٧": رجاله رجال الصحيح.
[٣٣] رواه البخاري "5073"، ومسلم "1402" عن سعد رضي الله عنه.
[٣٤] رواه أحمد "6/ 226"، وابن حيان "9" عن عائشة رضي الله عنها والدارمي "2/ 133" عن سعد رضي الله عنه.

لنفسه عائشة رضي الله عنها، وكانت مستحسنة[٣٥]. ورأى زينب، فاستحسنها، فتزوجها[٣٦]. وكذلك اختار صفية[٣٧]. وكان إذا وصفت له امرأة، بعث يخطبها[٣٨].

وكان لعلي -رضي الله عنه- أربع حرائر، وسبع عشرة سرية، مات عنهن. وقبل هذه الأمة، فقد كان لداود عليه السلام مئة امرأة، ولسليمان عليه السلام ألف امرأة.

فمن ادعى خللا في هذه الطرق، أو أن هؤلاء آثروا هواهم، وأنفقوا بضائع العمر في هذه الأغراض، وغيرها أفضل، فقد ادعى على الكاملين النقصان، وإنما هو الناقص في فهمه لا هم.

وقد كان سفيان الثوري إذا سافر، ففي سفرته حمل مشوي وفالوذج، وكان حسن المطعم، وكان يقول: إن الدابة إذا لم تحسن إليها، لم تعمل.

422- وهذه الفنون التي أشرت إليها، إن قصدت للحاجة إليها، أو لقضاء وطر النفس منها، أو لبلوغ الأغراض الدينية والدنيوية منها: فكله قصد صحيح، لا يعكر عليه من يقوم ويقعد في ركعات لا يفهم معناها، وفي تسبيحات أكثر ألفاظها ردية.

423- كلا، ليس إلا العلم الذي هو أفضل الصفات، وأشرف العبادات، وهو الآمر بالمصالح، والناطق بالنصائح. ثم منفعة العلم معروفة، وزهد الزاهد لا يتعدى عتبة بابه، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "لأن يهدي الله بك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس"[٣٩].

424- ثم اعتبر فضل الرسل على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والجوارح على التي لا تصيد، والطين الذي يعمل منها ما ينتفع به على الطين في المقلع[٤٠].

وغاية العلماء تصرفهم بالعلم في المباح، وأكثر المتزهدين جهلة، يستعبدهم تقبيل اليد لأجل تركهم ما

---

[٣٥] عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال صلى الله عليه وسلم: "أريتك في المنام ثلاث ليال، جاء بك الملك في سرقة من حرير، فيقول: هذه امرأتك، فأكشف عن وجهك، فإذا أنت هي، فأقول: إن يك هذا من عند الله يمضه" رواه البخاري "5125"، ومسلم "2438".

[٣٦] أما زواجه من زينب بنت جحش رضي الله عنها فرواه البخاري "7420و 7421"، ومسلم "1428" عن أنس رضي الله عنه، وليس فيه ولا في غيره أنه رآها فاستحسنها.

[٣٧] رواه البخاري "371"، ومسلم "1365"، عن أنس رضي الله عنه.

[٣٨] لم يصح شيء في هذا.

[٣٩] رواه الطبراني عن أبي رافع. انظر: كنز العمال "28802".

[٤٠] المقلع: المكان الذي تقلع منه الحجارة، ويستعان على ذلك بالماء، فيكثر الطين في هذه المقالع.

أبيح.

فكم فوتت العزلة علما يصلح به أصل الدين، وكم أوقعت في بلية هلك بها الدين، وإنما عزلة العالم عن الشر فحسب، والله الموفق.

2. قدوم إلى بغداد جماعة من أهل البدع الأعاجم

123. فصل: للباطل جولة وللحق صولة (ص195)

591- قدم إلى بغداد جماعة من أهل البدع الأعاجم، فارتقوا منابر التذكير للعوام، فكان معظم مجالسهم أنهم يقولون: ليس لله في الأرض كلام! وهل المصحف إلا ورق وعفص[41] وزاج[42]؟! وإن الله ليس في السماء! وإن الجارية التي قال لها النبي صلى الله عليه وسلم: "أين الله؟"[43]: كانت خرساء، فأشارت إلى السماء، أي: ليس هو من الأصنام التي تعبد في الأرض! ثم يقولون: أين الحروفية الذين يزعمون أن القرآن حرف وصوت؟! هذا عبارة جبريل!!

فما زالوا كذلك، حتى هان تعظيم القرآن في صدور أكثر العوام، وصار أحدهم يسمع فيقول: هذا هو الصحيح؛ وإلا، فالقرآن شيء يجيء به جبريل في كيس!

فشكا إلى جماعة من أهل السنة، فقلت لهم: اصبروا، فلا بد للشبهات أن ترفع رأسها في بعض الأوقات، وإن كانت مدموغة[44]، وللباطل جولة، وللحق صولة، والدجالون كثير، ولا يخلو بلد ممن يضرب البهرج[45]على مثل سكة السلطان.

592- قَالَ قَائِلٌ: فما جوابنا عن قولهم؟ قلت: اعلم -وفقك الله تعالى- أن الله عز وجل ورسوله قنعا من الخلق بالإيمان بالجمل، ولم يكلفا معرفة التفاصيل: إما؛ لأن الاطلاع على التفاصيل يخبط العقائد، وإما؛ لأن قوى البشر تعجز عن مطالعة ذلك.

---

[41] العفص: نوع من شجر البلوط، يتخذ منه صبغ وحبر.

[42] الزاج: أحد أملاح الكبريت، يستعمل في خلطة حبر الكتابة، ويسمى الشب اليماني.

[43] عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجارية: "أين الله؟ " قالت: في السماء، قال:"من أنا"؟ قالت: أنت رسول الله، قال: "أعتقها فإنها مؤمنة". رواه مسلم "537" وهذا نص في أن الجارية لم تكن خرساء.

[44] مكسورة: لا حجة لها.

[45] البهرج: الزائف إما ينقص وزنه أو نقص عياره أو بهما جميعًا، وهي تشبه ما يضربه السلطان من دنانير ودراهم صحيحة.

593- فأول ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم إثبات الخالق، ونزل عليه القرآن بالدليل على وجود الخالق، بالنظر في صنعه: فقال تعالى: {أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا} [النمل: 61] ، وقال تعالى: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ} [الذاريات: 21] وما زال يستدل على وجوده بمخلوقاته، وعلى قدرته بمصنوعاته.

594- ثم أثبت نبوة نبيه صلى الله عليه وسلم بمعجزته، وكان من أعظمها القرآن الذي جاء به، فعجز الخلائق عن مثله، واكتفى بهذه الأدلة جماعة من الصحابة، ومضى على ذلك القرن الأول، والمشرب صاف لم يتكدر.

595- وعلم الله عز وجل ما سيكون من البدع، فبالغ في إثبات الأدلة، وملأ بها القرآن.

596- ولما كان القرآن هو منبع العلوم، وأكبر المعجزات للرسول صلى الله عليه وسلم، أكد الأمر فيه: فقال تعالى: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ} [الأنعام: 92] ، {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ} [الإسراء: 82] ، فأخبر أنه كلامه بقولة تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ} [الفتح: 15] ، وأخبر أنه مسموع بقوله تعالى: {حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ} [التوبة: 6] ، وأخبر أنه محفوظ، فقال تعالى: {فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} [البروج: 22] ، وقال تعالى: {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} [العنكبوت: 49]، وأخبر أنه مكتوب ومتلو، فقال تعالى: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ} [العنكبوت: 48]، إلى ما يطول شرحه من تعدد الآيات في هذه المعاني، التي توجب إثبات القرآن.

597- ثم نزه نبيه صلى الله عليه وسلم عن أن يكون أتى به من قبل نفسه، فقال تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ} [السجدة: 3] ، وتوعده لو فعل، فقال تعالى: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ} [الحاقة] ، وقال: في حق الزاعم أنه كلام الخلق حين قال: {إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ، سَأُصْلِيهِ سَقَرَ} [المدثر] .

598- ولما عذب كل أمة بنوع عذاب تولاه بعض الملائكة، كصيحة جبريل عليه السلام بثمود، وإرسال الريح على عاد، والخسف بقارون، وقلب جبريل ديار قوم لوط عليه السلام، وإرسال الطير الأبابيل على من قصد تخريب الكعبة1، تولى هو بنفسه، عقاب المكذبين بالقرآن، فقال تعالى:

{فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ} [القلم: 44] ، {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا} [المدثر: 11] وهذا؛ لأنه أصل هذه الشرائع، والمثبت لكل شريعة تقدمت؛ لأن جميع الملل ليس عندهم ما يدل على صحة ما كانوا فيه إلا كتابنا؛ لأن كتبهم غيرت وبدلت.

599- وقد علم كل ذي عقل أن القائل: {إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ} [المدثر: 25] : إنما أشار إلى ما سمعه، ولا يختلف أولو الألباب وأهل الفهم للخطاب أن قوله: {وَإِنَّهُ} كناية عن القرآن، وقوله: {نَزَلَ بِهِ} : كناية أيضًا عنه، وقوله: {وَهَذَا كِتَابٌ} : إشارة إلى حاضر، وهذا أمر مستقيم، لم يختلف فيه أحد من القدماء في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم.

600- ثم دس الشيطان دسائس البدع، فقال قوم: هذا المشار إليه مخلوق! فثبت الإمام أحمد رحمه الله ثبوتًا لم يثبته غيره على دفع هذا القول، لئلا يتطرق إلى القرآن ما يمحو بعض تعظيمه في النفوس، ويخرجه عن الإضافة إلى الله عز وجل، ورأى أن ابتداع ما لم يقل فيه لا يجوز استعماله، فقال: كيف أقول ما لم يقل؟!

601- ثم لم يختلف الناس في غير ذلك إلى أن نشأ علي بن إسماعيل الأشعري، فقال مرة بقول المعتزلة، ثم عنَّ له[٤٦]، فادعى أن الكلام صفة قائمة بالنفس! فأوجبت دعواه هذه أن ما عندنا مخلوق، وزادت فخبطت العقائد، فما زال أهل البدع يجوبون في تيارها إلى اليوم.

602- والكلام في هذه المسألة مرتب بذكر الحجج والشبه في كتب الأصول، فلا أطيل به ها هنا، بل أذكر لك جملة تكفي من أراد الله هداه: وهو أن الشرع قنع منا بالإيمان جملة، وبتعظيم الظواهر، ونهى عن الخوض فيما يثير غبار شبهة، ولا تقوى على قطع طريقه أقدام الفهم.

وإذا كان قد نهى عن الخوض في القدر، فكيف يجوز الخوض في صفات المقدر؟!

وما ذاك إلا لأحد الأمرين اللذين ذكرتهما: إما لخوف إثارة شبهة تزلزل العقائد، أو؛ لأن قوى البشر تعجز عن إدراك الحقائق.

---

[٤٦] عَنَّ له: بدا له.

603- فإذا كانت ظواهر القرآن تثبت وجود القرآن؛ فقال قائل: ليس ها هنا قرآن، فقد رد الظواهر التي تعب الرسول -صلى الله عليه وسلم- في إثباتها، وقرر وجودها في النفوس. وبماذا يحل ويحرم، ويبت ويقطع، وليس عندنا من الله تعالى تقدم بشيء؟! وهل للمخالف دليل إلا أن يقول: قال الله، فيعود، فيثبت ما نفى؟! فليس الصواب لمن وفق إلا الوقوف مع ظاهر الشرع. فإن اعترضه ذو شبهة، فقال: هذا صوتك، وهذا خطك، فأين القرآن؟! فليقل له: قد أجمعنا أنا وأنت على وجود شيء به نحتج جميعًا، وكما أنك تنكر عليَّ أن أثبت شيئًا لا يتحقق لي إثباته حسًّا، فأنا أنكر عليك كيف تنفي وجود شيء قد ثبت شرعًا؟!

604- وأما قولهم: هل في المصحف إلا ورق وعفص وزاج؟! فهذا كقول القائل: هل الآدمي إلا لحم ودم؟! هيهات! إن معنى الآدمي هو الروح، فمن نظر إلى اللحم والدم، وقف مع الحس، فإن قال: فكذا أقول: إن المكتوب غير الكتابة. قلنا له: وهذا مما ننكره عليك؛ لأنه لا يثبت تحقيق هذا لك ولا لخصمك: فإن أردت بالكتابة الحبر وتخطيطه، فهذا ليس هو القرآن، وإن أردت المعنى القائم بذلك، فهذا ليس هو الكتابة.

605- وهذه الأشياء لا يصلح الخوض فيها، فإن ما دونها لا يمكن تحقيقه على التفصيل، كالروح مثلًا؛ فإنا نعلم وجودها في الجملة، فأما حقيقتها، فلا، فإذا جهلنا حقائقها، كنا لصفات الحق أجهل، فوجب الوقوف مع السمعيات، مع نفي ما لا يليق بالحق؛ لأن الخوض يزيد الخائض تخبيطًا، ولا يفيده تحصيلًا، بل يوجب عليه نفي ما يثبت بالسمع من غير تحقيق أمر عقلي، فلا وجه للسلامة إلا طريق السلف والسلام.

606- وكذلك أقول: إن إثبات الإله بظواهر الآيات والسنن ألزم للعوام من تحديثهم بالتنزيه، وإن كان التنزيه لازمًا، وقد كان ابن عقيل يقول: الأصلح لاعتقاد العوام ظواهر الآي والسنن؛ لأنهم يأنسون بالإثبات، فمتى محونا ذلك من قلوبهم؛ زالت السياسات والحشمة، وتهافت العوام في الشبهة أحب إلي من إغراقهم في التنزيه؛ لأن التشبيه يغمسهم في الإثبات، فيطمعوا ويخافوا شيئًا قد أنسوا إلى ما يخاف مثله ويرجى، والتنزيه يرمي بهم إلى النفي، ولا طمع ولا مخافة من النفي.

ومن تدبر الشريعة، رآها غامسة لمكلفين في التشبيه بالألفاظ، التي يعطي ظاهرها سواه، كقول الأعرابي: أو يضحك رَبُّنا؟ قال: "نَعَمْ"؛ فلم يكفر من هذا.

اشتد الغلاء ببغداد في أول سنة خمس وسبعين

173- فصل: بادر موسم الزرع (ص257)

804- اشتد الغلاء ببغداد في أول سنة خمس وسبعين"575هـ"، وكلما جاء الشعير، زاد السعر، فتواقع الناس على اشتراء الطعام. فاغتبط من يستعد كل سنة بزرع ما يقوته، وفرح من بادر في أول النسيان إلى اشتراء الطعام قبل أن يضاعف ثمنه،

وأخرج الفقراء ما في بيوتهم، فرموه في سوق الهوان، وبان ذل نفوس كانت عزيزة.

فقلت: يا نفس! خذي من هذه الحال إشارة: ليغبطن من له عمل صالح وقت الحاجة إليه، وليفرحن من له جواب عند إقبال المسألة، وكل الويل على المفرط الذي لا ينظر في عاقبته! فتنبهي، فقد نبهت ناسًا في الدنيا على أمر الآخرة! وبادري موسم الزرع ما دامت الروح في البدن، فالزمان كله تشرين[٤٧]، قبل أن يدخل نيسان الحصاد وما لك زرع، وحاجة المفتقرين إلى أموالهم تمنعهم من الإيثار.

جبال خيبر

102- فصل: لو صحَّت النفوس لذابت من خوف الله أو لغابت في محبته (ص169)

496- عرض لي في طريق الحج خوف من العرب[٤٨]، فسرنا على طريق خيبر[٤٩]، فرأيت من الجبال الهائلة، والطرق العجيبة ما أذهلني، وزادت عظمة الخالق عز وجل في صدري، فصار يعرض لي عند ذكر تلك الطرق نوع تعظيم لا أجده عند ذكر غيرها. فصحت بالنفس: ويحك! اعبري إلى البحر، وانظري إليه، وإلى عجائبه بعين الفكر، تشاهدي أهوالًا هي أعظم من هذه. ثم اخرجي إلى الكون،

---

[٤٧] تشرين: موسم الزرع.

[٤٨] كان ذلك في حجته الثانية سنة "553هـ"، أما الأولى فكانت سنة "541هـ"، والمقصود بالعرب الأعراب، الذين كانوا يقطعون الطريق على القوافل.

[٤٩] خيبر: ناحية شمال المدية على طريق الشام. ومعنى خيبر بالعبرانية: الحصن.

والتفتي إليه، فإنك ترينه بالإضافة إلى السماوات والأفلاك كذرة في فلاة، ثم جولي في الأفلاك، وطوفي حول العرش، وتلمحي ما في الجنان والنيران. ثم اخرجي عن الكل، والتفتي إليه، فإنك تشاهدين العالم في قبضة القادر الذي لا تقف قدرته عند حد.

ثم التفتي إليك، فتلمحي بدايتك ونهايتك، وتفكري فيما قبل البداية، وليس إلا العدم، وفيما بعد البلى، وليس إلا التراب.

فكيف يأنس بهذا الوجود من نظر بعين فكره المبدأ والمنتهى؟! وكيف يغفل أرباب القلوب عن ذكر هذا الإله العظيم؟! وبالله، لو صحت النفوس من سكر هواها، لذابت من خوفه، أو لغابت في حبه؛ غير أن الحس غلب، فعظمت قدرة الخالق عند رؤية جبل، وإن الفطنة لو تلمحت المعاني، لدلت القدرة عليه أوفى من دليل الجبل، سبحان من شغل أكثر الخلق بما هم فيه عَمَّا خلقوا له! سبحانه!

ثلاثة من العلماء في عصره

174- ولقد سبرت السلف كلهم، فأردت أن استخرج منهم من جمع بين العلم حتى صار من المجتهدين، وبين العمل حتى صار قدوة للعابدين، فلم أرَ أكثر من ثلاثة: أولهم: الحسن البصري، وثانيهم: سفيان الثوري، وثالثهم: أحمد بن حنبل، وقد أفردت لأخبار كل واحد منهم كتابًا، وما أنكر على من ربعهم بسعيد بْنِ المُسَيَّبِ[٥٠].

175- وإن كان في السلف سادات؛ إلا أن أكثرهم غلب عليه فن، فنقص من الآخرة، فمنهم من غلب عليه العلم، ومنهم من غلب عليه العمل، وكل هؤلاء كان له الحظ الوافر من العلم، والنصيب الأوفى من المعاملة والمعرفة.

176- ولا ييأس من وجود من يحذو حذوهم، وإن كان الفضل بالسبق لهم، فقد أطلع الله -عز وجل-

---

[٥٠] أبو محمد القرشي المخزومي "94-13هـ"، عالم أهل المدينة، وأحد فقهائها السبعة، وسيد التابعين في عصره، وأحفظ الناس لأقضية عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الخضر على ما خفي على موسى عليه السلام، فخزائن الله مملوءة، وعطاؤه لا يقف على شخص.

177- ولقد حكي لي عن ابن عقيل[51]: أنه كان يقول عن نفسه: أنا عملت في قارب ثم كسر وهذا غلط، فمن أين له؟! فكم من معجب بنفسه كشف له من غيره ما عاد يحقر نفسه على ذلك!! وكم من متأخر سبق متقدمًا!! وقد قيل:

إنَّ اللَّيالِيَ وَالأَيَّامَ حَامِلَةٌ ... وَلَيْسَ يَعْلَمُ غَيْرُ اللهِ مَا تَلِدُ

100- **فصل:إن العقوبة بالمرصاد**

478- مازلت أسمع عن جماعة من الأكابر وأرباب المناصب أنهم: يشربون الخمور، ويفسقون، ويظلمون، ويفعلون أشياء توجب الحدود! فبقيت أتفكر، أقول: متى يثبت على مثل هؤلاء ما يوجب حدًّا؟ فلو ثبت، فمن يقيمه؟ وأستبعد هذا في العادة؛ لأنهم في مقام احترام لأجل مناصبهم.

فبقيت أتفكر في تعطيل الحد الواجب عليهم، حتى رأيناهم قد نكبوا، وأخذوا مرات، ومرت عليهم العجائب، فقوبل ظلمهم بأخذ أموالهم، وأخذت منهم الحدود مضاعفة بعد الحبس الطويل، والقيد الثقيل، والذل العظيم، وفيهم من قتل بعد ملاقاة كل شدة! فعلمت أنها ما يهمل شيء! فالحَذَرَ الحَذَرَ، فإن العقوبة بالمرصاد.

46- فصل:احذروا الترخّص فيما لا يؤمن فساده

237- كنت في بداية الصبوة[52] قد ألهمت سلوك طريق الزهاد، بإدامة الصوم والصلاة، وحببت إلي الخلوة، فكنت أجد قلبًا طيّبًا، وكانت عين بصيرتي قوية الحدة، تتأسف على لحظة تمضي في غير طاعة، وتبادر الوقت في اغتنام الطاعات، ولي نوع أنس، وحلاوة مناجاة، فانتهى الأمر إلى أن صار بعض ولاة الأمور يستحسن كلامي، فأمالني إليه، فمال الطبع، ففقدت تلك الحلاوة. ثم استمالني آخر، فكنت أتقي مخالطته ومطاعمه لخوف الشبهات، وكانت حالتي قريبة، ثم جاء التأويل، فانبسطت فيما

---

[51] أبو الوفاء علي بن عقيل البغدادي الظفري "513-431هـ" شيخ الحنابلة، كان يتوقد ذكاء، وكان بحر معارف، وكنز فضائل، له كتاب الفنون.

[52] الصبوة: الصِّبا.

يباح، فعدم ما كنت أجد من استنارة وسكينة، وصارت المخالطة توجب ظلمة في القلب، إلى أن عدم النور كله، فكان حنيني إلى ما ضاع مني يوجب انزعاج أهل المجلس، فيتوبون ويصلحون، وأخرج مفلسًا فيما بيني وبين حالي!

238- وكثر ضجيجي من مرضي، وعجزت عن طلب نفسي، فلجأت إلى قبول الصالحين، وتوسلت في صلاحي، فاجتذبني لطف مولاي بي إلى الخلوة على كراهة مني، ورد قلبي على بعد نفور مني، وأراني عيب ما كنت أوثره، فأفقت من مرض غفلتي، وقلت في مناجاة خلوتي:

"سيدي كيف أقدر على شكرك؟ وبأي لسان أنطق بمدحك، إذ لم تؤاخذني على غفلتي، ونبهتني من رقدتي، وأصلحت حالي على كره من طبعي؟!

فما أربحني فيما سلب مني إذا كانت ثمرته اللجأ إليك!

وما أوفر جمعي إذ ثمرته إقبالي على الخلوة بك! وما أغناني إذ أفقرتني

إليك! وما آنسني إذ أوحشتني بالتجارب لخلقك!

آهٍ على زمانٍ ضاع في غير خدمتك! أَسَفًا لوقتٍ مضى في غير طاعتك.

239- قد كنت إذا انتبهت وقت الفجر لا يؤلمني نومي طول الليل، وإذا انسلخ عني النهار لا يوجعني ضياع ذلك اليوم، وما علمت أن عدم الإحساس لقوة المرض. فالآن قد هبت نسائم العافية، فأحسست بالألم، فاستدللت على الصحة، فيا عظيم الإنعام! تَمِّمْ لي العافية.

240- آهٍ من سكر لم يعلم قدر عربدته إلا في وقت الإفاقة! لقد فتقت ما يصعب رتقه، فوا أَسَفًا على بضاعة ضاعت، وعلى ملاح تعب في موج الشمال مصاعِدًا مدة، ثم غلبه النوم، فرد إلى مكانه الأول.

241- يا من يقرأ تحذيري من التخليط! فإني -وإن كنت خنت نفسي بالفعل- نصيح لإخواني بالقول:

احذروا -إخواني- من الترخص فيما لا يؤمن فساده؛ فإن الشيطان يزين المباح في أول مرتبة، ثم

يجر إلى الجناح[٥٣]، فتلمحوا المآل، وافهموا الحال! وربما أراكم الغاية الصالحة، وكان في الطريق إليها نوع مخالفة!

فيكفي الاعتبار في تلك الحال بأبيكم: {هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى} [طه: 120] ، إنما تأمل آدم الغاية –وهي الخلد– ولكنه غلط في الطريق.

242– وهذا أعجب مصايد إبليس التي يصيد بها العلماء، يتأولون لعواقب المصالح، فيستعجلون ضرر المفاسد!!

مثاله: أن يقول للعالم: ادخل على هذا الظالم، فاشفع في مظلوم! فيستعجل الداخل رؤية المنكرات، ويتزلزل دينه، وربما وقع في شرك صار به أظلم من ذلك الظالم. فمن لم يثق بدينة، فليحذر من المصايد، فإنها خفية.

---

[٥٣] الجناح: الإثم.

4 .حوارات ابن الجوزي مع نفسه

42- فصل: شرف الإنسان:

215- ما أزال أتعجب ممن يرى تفضيل الملائكة على الأنبياء والأولياء! فإن كان التفضيل بالصور، فصورة الآدمي أعجب من ذوي أجنحة، وإن تركت صورة الآدمي لأجل أوساخها المنوطة بها، فالصورة ليست الآدمي، إنما هي قالب! ثم قد استحسن منها ما يستقبح في العادة، مثل: خلوف فم الصائم، ودم الشهداء[٥٤]، والنوم في الصلاة[٥٥]، فبقيت صورة معمورة، وصار الحكم للمعنى. ألهم مرتبة يحبهم أو فضيلة يباهي بهم؟!

وكيف دار الأمر، فقد سجدوا لنا، وهو صريح في تفضيلنا عليهم.

216- فإن كانت الفضيلة بالعلم، فقد علمت القصة يوم: {لا عِلْمَ لَنَا} [البقرة: 32] {يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ} [البقرة: 33] . وإن فضلت الملائكة بجوهرية ذواتهم، فجوهرية أرواحنا من ذلك الجنس، وعلينا أثقال أعباء الجسم.

بالله، لولا احتياج الراكب إلى الناقة، فهو يتوقف لطلب علفها، ويرفق في السير بها، لطرق أرض منى قبل العشر.

217- واعجبًا! أتفضل الملائكة بكثرة التعبد؟! فما ثم صعاد[٥٦]. أو يتعجب من الماء إذا جرى، أو من منحدر يسرع؟! إنما العجب من مصاعد يشق الطريق، ويغالب العقبات!

218- بلى، قد يتصور منهم الخلاف، ودعوى الإلهية؛ لقدرتهم على دك الصخور وشق الأرض، لذلك تواعدوا: {وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ} [الأنبياء: 29] ، لكنهم يعلمون

---

[٥٤] رواه البخاري "237"، ومسلم "1876" عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[٥٥] عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من امرئ تكون له صلاة بليل فغلبه عليها نوم إلا كتب الله له أجر صلاته، وكان نومه صدقة عليه"، رواه أبو داود "1314"، والنسائي "1783، 1784".

[٥٦] الصعاد: الرقي والارتفاع، وفي حاشية الأصل: في الأحمدية: فما ثم صاد. قلت: أي مانع.

عقوبة الحق فيحذرونه[٥٧].

23- فصل: النفس لا تصبر على الحصر:

99- تأملت حرص النفس على ما منعت منه، فرأيت حرصها يزيد على قدر قوة المنع.

ورأيت في السرب[٥٨] الأول: أن آدم عليه السلام لما نهي عن الشجرة، حرص عليها مع كثرة الأشجار المغنية عنها.

وفي الأمثال: المرء حريص على ما منع، وتوافق إلى ما لم ينل، ويقال: لو أمر الناس بالجوع، لصبروا، ولو نهوا عن تفتيت البعر؛ لرغبوا فيه، وقالوا: ما نهينا عنه إلا لشيء. وقد قيل:

أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الإِنْسَانِ مَا مُنِعَا

100- فلما بحثت عن سبب ذلك، وجدت سببين:

أحدهما: أن النفس لا تصبر على الحصر؛ فإنه يكفي حصرها في صورة البدن، فإذا حصرت في المعنى بمنع، زاد طيشها، ولهذا لو قعد الإنسان في بيته شهرًا، لم يصعب عليه، ولو قيل له: لا تخرج من بيتك يومًا، طال عليه.

والثاني: أنها يشق عليها الدخول تحت حكم، ولهذا تستلذ الحرام، ولا تكاد تستطيب المباح، ولذلك يسهل عليها التعبد على ما ترى وتؤثر، لا على ما يؤثر.

47- فصل: إن الله لا يُخادع:

246- تأملت في نفسي تأويلًا في مباح أنال به شيئًا من الدنيا؛ إلا أنه في باب الورع كدر، فرأيته أولًا قد احتلب در[٥٩] الدين، فذهبت حلاوة المعاملة لله تعالى، ثم عاد فقلص[٦٠] ضرع حلبي له، فوقع

---

[٥٧] هذا بحث طويل وخلافي بين أهل العلم، ومن أراد المزيد يرجع إلى الكتاب.

[٥٨] السرب: يقصد المؤلف به القرن أو الجيل من الناس.

[٥٩] الدر: الحلب.

[٦٠] قلص: انكمش ولم يحلب.

الفقد للحالين.

فقلت لنفسي: ما مثلك إلا كمثل وال ظالم، جمع [مالًا] من غير حله، فصودر، فأخذ منه الذي جمع، وألزم ما لم يجمع.

فالحذر الحذر من فساد التأويل، فإن الله تعالى لا يُخَادَعُ، ولا ينال ما عنده بمعصيته.

64- فصل: الاعتراف بالتقصير أنجح في الحوائج:

338- عرض لي أمر يحتاج إلى سؤال الله عز وجل ودعائه، فدعوت وسالت، فأخذ بعض أهل الخير يدعو معي، فرأيت نوعا من أثر الإجابة. فقالت لي نفسي: هذا بسؤال ذلك العبد لا بسؤالك. فقلت لها: أما أنا، فإني أعرف من نفسي من الذنوب والتقصير ما يوجب منع الجواب، غير أنه يجوز أن يكون أنا الذي أجبت؛ لأن هذا الداعي الصالح سليم مما أظنه من نفسي؛ لأن معي انكسار تقصيري، ومعه الفرح بمعاملته، وربما كان الاعتراف بالتقصير أنجح في الحوائج.

على أنني أنا وهو نطلب من الفضل لا بأعمالنا، فإذا وقفت أنا على قدم الانسكار، معترفا بذنوبي، وقلت: أعطوني بفضلكم، فما لي في سؤالي شيء أمن به، وربما تلمح ذاك حسن عمله، وكان صادا له.

فلا تسكريني أيتها النفس، فيكفيني كسر علمي بي لي! معي من العلم الموجب للأدب، والاعتراف بالتقصير، وشدة الفقر إلى ما سألت، ويقيني بفضل المطلوب عنه: ما ليس مع ذلك العابد؛ فبارك الله في عبادته، فربما كان اعترافي بتقصيري أوفى.

99- فصل: الورع الأخذ بالأحوط في اتقاء الشبهات:

475- أمكنني تحصيل شيءٍ من الدنيا بنوع من أنواع الرخص، فكنت كلما حصل شيء منه، فاتني من قلبي شيء، وكلما استنارت لي طريق التحصيل، تجدد في قلبي ظلمة. فقلت: يا نفس السوء! الإثم حواز القلوب[٦١]، وقد قال "النبي صلى الله عليه وسلم": "استفت قلبك"[٦٢]، فلا خير في الدنيا كلها إذا

---

[٦١] حواز القلوب: يأسر القلب ويقيده.

كان في القلب من تحصيلها شيء أوجب نوع كدر، وإن الجنة لو حصلت بسبب يقدح في الدين أو في المعاملة، ما لذت! والنوم على المزابل مع سلامة القلب من الكدر ألذ من تكأة الملوك.

476- ومازلت أغلب نفسي تارةً، وتغلبني أخرى، ثم تدعي الحاجة إلى تحصيل ما لا بد لها منه، وتقول: فما أتعدى في الكسب المباح في الظاهر! فقلت لها: أو ليس الورع يمنع من هذا؟ قالت: بلى، قلت: أليست القسوة في القلب تحصل به؟ قالت: بلى. قلت: فلا خير لك في شيء هذا ثمرته!

477- فخلوت يومًا بنفسي، فقلت لها: ويحك! اسمعي أحدثك! إن جمعت شيئًا من الدنيا من وجه فيه شبهة، أفأنت على يقين من إنفاقه؟ قالت: لا. قلت: فالمحنة أن يحظى به الغير، ولا تنالين إلا الكدر العاجل، والوزر الذي لا يؤمن.

ويحك! اتركي هذا الذي يمنع منه الورع لأجل الله، فعامليه بتركه. وكأنك لا تريدين أن تتركي إلا ما هو محرم فقط، أو ما لا يصح وجهه؟ أو ما سمعت أن: "من ترك شيئًا للهِ، عوضه الله خيرًا منه"[٦٣]؟! أما لك عبرة في أقوام جمعوا، فحازه سواهم، وأملوا فما بلغو مناهم؟! كم من عالم جمع كُتُبًا كثيرةً ما انتفع بها! وكم من منتفع ما عنده عشرة أجزاءٍ! وكم من طيب العيش لا يملك دينارين! وكم ن ذي قناطير مُنَغَّصٍ!

أما لك فطنة تتلمح أحوال من يترخص من وجهٍ، فيسلب منها من أوجهٍ؟! ربما نزل المرض بصاحب الدار، أو ببعض من فيها، فأنفق في سنته أضعاف ما ترخيص في كسبه، والمتقي معافًى.

فضجت النفس من لومي، وقالت: إذا لم أتعد واجب الشرع، فما الذي تريد مني؟! فقلت لها: أضن بك عن الغبن، وأنت أعرف بباطن أمرك. قالت: فقل لي: ما أصنع؟ قلت: عليك بالمراقبة لمن يراك، ومثلي نفسك بحضرة معظم من الخلق؛ فإنك بين يدي الملك الأعظم، يرى من باطنك ما لا يراه المعظمون من ظاهرك، فخذي بالأحوط، واحذري من الترخص في بيع اليقين والتقوى بعاجل الهوى، فإن ضاق الطبع مما تلقين، فقولي له: مهلًا، فما انقضت مدة الإشارة! والله مرشدك إلى التحقيق، ومعينك بالتوفيق.

---

[٦٢] رواه أحمد "4/ 288"، والدارمي "2/ 246" عن وابصة بن معبد.

85- فصل: تسأل الله حاجاتها وتنسى جناياتها:

430- رأيت من نفسي عجبًا! تسأل الله عز وجل حاجاتها، وتنسى جناياتها!! فقلت: يا نفس السوء! أو مثلك ينطق؟! فإن نَطَق، فينبغي أن يكون السؤال العفو فحسب. فقالت: فممن أطلب مراداتي؟! قلت: ما أمنعك من طلب المراد، إنما أقول: حققي التوبة وانطقي، كما نقول في العاصي بسفره إذا اضطر إلى الميتة: لا يجوز له أن يأكل، فإن قيل لنا: أفيموت؟! قلنا: لا، بل يَتُوْبُ وَيَأْكُلُ.

فالله الله من جراءةٍ على طلب الأغراض، مع نسيان ما تقدم من الذنوب، التي توجب تنكيس الرأس، ولئن تشاغلت بإصلاح ما مضى، والندم عليه، جاءتك مراداتك. كما روي: "من شغله ذكري عن مسألتي، أعطيته أفضل ما أعطي السائلين"[٦٤].

431- وقد كان بشر الحافي يبسط يديه للسؤال، ثم يسبلهما، ويقول: مثلي لا يسأل! ما أبقت الذنوب لي وَجْهًا. وهذا يختص ببشر لقوة معرفته، كان وقت السؤال كالمخاطب كفاحًا، فاستحيا للزلل. فأما أهل الغفلة، فسؤالهم على بعد. فافهم ما ذكرته، وتشاغل بالتوبة من الزلل.

432- ثم العجب من سؤالاتك! فإنك لا تكاد تسأل مهمًّا من الدنيا، بل فضول العيش، ولا تسأل صلاح القلب والدين مثل ما تسأل صلاح الدنيا.

فاعتقل أمرك؛ فإنك من الانبساط والغفلة على شفا جُرُفٍ، وليكن حزنك على زلاتك شاغلًا لك عن مراداتك، فقد كان الحسن البصري شديد الخوف، فلما قيل له في ذلك؟ قال: وما يؤمنني أن يكون اطلع على بعض ذنوبي فقال: اذهب؛ لا غفرت لك؟!

38- فصل: امتناع إجابة الدعاء:

205- رأيت من البلاء أن المؤمن يدعو فلا يجاب، فيكرر الدعاء، وتطول المدة، ولا يرى أثرًا للإجابة، فينبغي له أن يعلم أن هذا من البلاء الذي يحتاج إلى الصبر، وما يعرض للنفس من الوسواس في تأخير الجواب مرض يحتاج إلى طب.

---

[٦٣] رواه أحمد "5/ 363"، والنسائي في الكبرى، والقضاعي "1135" عن رجل من أهل البادية.

[٦٤] رواه الترمذي "2926"، والدارمي "11/ 441" عن أبي سعيد الخدري، ضعفه العراقي في تخريج الإحياء "1/ 295".

206- ولقد عرض لي شيء من هذا الجنس؛ فإنه نزلت بي نازلة، فدعوت، وبالغت، والبخل معدوم، فما فائدة تأخير الجواب؟! فقلت له: اخسأ يا لعين! فما أحتاج إلى تقاض، ولا أرضاك وكيلًا.

ثم عدت إلى نفسي فقلت: إياك ومساكنة وسوسته، فإنه لو لم يكن في تأخير الإجابة إلا أن يبلوك المقدر في محاربة العدو، لكفى في الحكمة.

207- قالت: فسلني عن تأخير الإجابة في مثل هذه النازلة! فقلت: قد ثبت بالبرهان أن الله عز وجل مالك، وللمالك التصرف بالمنع والعطاء، فلا وجه للاعتراض عليه1.

والثاني: أنه قد ثبتت حكمته بالأدلة القاطعة، فربما رأيت الشيء مصلحة،

والحكمة لا تقتضيه، وقد يخفى وجه الحكمة فيما يفعله الطبيب من أشياء تؤذي في الظاهر، يقصد بها المصلحة، فلعل هذا من ذاك.

والثالث: أنه قد يكون التأخير مصلحة، والاستعجال مضرة، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم: "لايزال العبد في خير ما لم يستعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي! "[٦٥]. والرابع: أنه قد يكون امتناع الإجابة لآفة فيك، فربما يكون في مأكولك شبهة، أو قلبك وقت الدعاء في غفلة، أو تزاد عقوبتك في منع حاجتك لذنب ما صدقت في التوبة منه، فابحثي عن بعض هذه الأسباب، لعلك تقعي بالمقصود، كما روي عن أبي يزيد رضي الله عنه: أنه نزل بعض الأعاجم في داره، فجاء، فرآه، فوقف بباب الدار، وأمر بعض أصحابه، فدخل، فقلع طينًا جديدًا قد طينه، فقام الأعجمي وخرج، فسئل أبو يزيد عن ذلك؟ فقال: هذا الطين من وجه فيه شبهة، فلما زالت الشبهة، زال صاحبها.

وعن إبراهيم الخواص[٦٦] رحمة الله عليه: أنه خرج لإنكار منكر، فنبحه كلب له، فمنعه أن يمضي، فعاد، ودخل المسجد، وصلى، ثم خرج، فبصبص الكلب[٦٧] له، فمضى، وأنكر، فزال المنكر، فسئل عن تلك الحال؟ فقال: كان عندي منكر، فمنعني الكلب، فلما عدت، تبت من ذلك، فكان ما رأيتم.

---

[٦٥] رواه أحمد "3/ 193 و 210 عن أنس رضي الله عنه.
[٦٦] إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل، أبو إسحاق، من أقران الجنيد، توفي في جامع الري سنة "291 هـ".
[٦٧] بصبص الكلب: هز ذيله تملقًا.

والخامس: أنه ينبغي أن يقع البحث عن مقصودك بهذا المطلوب، فربما كان في حصوله زيادة إثم، أو تأخير عن مرتبة خير، فكان المنع أصلح، وقد روي عن بعض السلف: أنه كان يسأل الله الغزو، فهتف به هاتف: إنك إن غزوت، أسرت، وإن أسرت، تنصرت.

والسادس: أنه ربما كان فقد ما فقدته سببًا للوقوف على الباب واللجأ، وحصوله سببًا للاشتغال عن المسؤول. وهذا الظاهر، بدليل أنه لولا هذه النازلة، ما رأيناك على باب اللجأ، فالحق -عز وجل- علم من الخلق اشتغالهم بالبر عنه، فلذعهم في خلال النعم بعوارض تدفعهم إلى بابه، يستغيثون به، فهذا من النعم في طَيِّ البلاء، وإنما البلاء المحض ما يشغلك عنه، فأما ما يقيمك بين يديه، ففيه جمالك.

وقد حكي عن يَحْيَى البَكَّاءِ[68] أنه رأى ربه عز وجل في المنام، فقال: يا رب! كم أدعوك ولا تجيبني؟ فقال: يحيى! إني أحب أن أسمع صوتك.

وإذا تدبرت هذه الأشياء، تشاغلت بما هو أنفع لك من حصول ما فاتك، من رفع خلل، أو اعتذار من زلل، أو وقوف على الباب إلى رب الأرباب.

55- فصل: الرضا بالقضاء وما يعين عليه:

296- لما أنهيت كتابة الفصل المتقدم، هتف بي هاتف من باطني: دعني من شرح الصبر على الأقدار، فإني قد اكتفيت بأنموذج ما شرحت! وصف حال الرضا، فإني أجد نسيما من ذكره فيه روح للروح!

فقلت: أيها الهاتف! اسمع الجواب! وافهم الصواب! إن الرضا من جملة ثمرات المعرفة، فإذا عرفته، رضيت بقضائه.

297- وقد يجري في ضمن القضاء مرارات، يجد بعض طعمها الراضي، أما العارف، فتقل عنده المرارة، لقوة حلاوة المعرفة، فإذا ترقى بالمعرفة إلى المحبة، صارت مرارة الأقدار حلاوة. كما قال القائل:

---

[68] يحيى بن مسلم، شيخ بصري، من موالي الأزد، تابعي، حدث عن ابن عمر رضي الله عنهما، توفي سنة "130 هـ".

عذابه فيك عذب ... وبعده فيك قرب

وأنت عندي كروحي ... بل أنت منها أحب

حسبي من الحب أني ... لما تحب أحب

وقال بعض المحبين في هذا المعنى:

ويقبح من سواك الفعل عندي ... فتفعله فيحسن منك ذاكا

298- فصاح بي الهاتف: حدثني، بماذا أرضى؟! قدر أني أرضى في أقداره بالمرض والفقر، أفأرضى بالكسل عن خدمته، والبعد عن أهل محبته؟! فبين لي ما الذي يدخل تحت الرضا مما لا يدخل!

فقلت له: نعم ما سألت، فاسمع الفرق سماع من ألقى السمع وهو شهيد: ارض بما كان منه، فأما الكسل والتخلف، فذاك منسوب إليك، فلا ترض به من فعلك. وكن مستوفيا حقه عليك، مناقشا نفسك فيما يقربك منه، غير راض منها بالتواني في المجاهدة.

فأما ما يصدر من أقضيته المجردة، التي لا كسب لك فيها، فكن راضيا بها، كما قالت رابعة رحمة الله عليها، وقد ذكر عندها رجل من العباد يلتقط من مزيلة فيأكل، فقيل: هلا سأل الله تعالى أن يجعل رزقه من غير هذا؟! فقالت: إن الراضي لا يتخير، ومن ذاق طعم المعرفة، وجد فيه طعم المحبة، فوقع الرضا عنده ضرورة.

299- فينبغي الاجتهاد في طلب المعرفة بالأدلة، ثم العمل بمقتضى المعرفة بالجد في الخدمة، لعل ذلك يورث المحبة، فقد قال سبحانه وتعالى: "لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ... "[٦٩]. فذلك الغنى الأكبر ... ووا فقراه!

---

[٦٩] رواه البخاري "6502" عن أبي هريرة رضي الله عنه.

عرضت لي حالة لجأت فيها بقلبي إلى الله تعالى وحده، عالمًا بأنه لا يقدر على جلب نفعي، ودفع ضري سواه، ثم قمت أتعرض بالأسباب، فأنكر علي يقيني، وقال: هذا قدح في التوكل! فقلت: ليس كذلك، فإن الله تعالى وضعها[٧٠] من الحكم، وكان معنى حالي: أن ما وضعت لا يفيد، وأن وجوده كالعدم!

263- وما زالت الأسباب في الشرع: كقوله تعالى: {وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ} [النساء: 102]. وقال تعالى: {فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ} [يوسف: 47] . وقد ظاهر النبي صلى الله عليه وسلم بين درعين، وشاور طبيبين، ولما خرج إلى الطائف، لم يقدر على دخول مكة، حتى بعث إلى المطعم بن عدي، فقال: "أدخل في جوارك"، وقد كان يمكنه أن يدخل متوكلًا بلا سبب.

264- فإذا جعل الشرع الأمور منوطة بالأسباب، كان إعراضي عن الأسباب دفعًا للحكمة، ولهذا أرى أن التداوي مندوب إليه، وقد ذهب صاحب مذهبي[٧١] إلى أن ترك التداوي أفضل، ومنعني الدليل من اتباعه في هذا: فإن الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما أنزل الله داءً، إلا وأنزل له دواء، فتداووا"[٧٢]، ومرتبة هذه اللفظة الأمر، والأمر إما أن يكون واجبًا، أو ندبًا، [إن] لم يسبقه حظر، [فإن سبقه حظر] فيقال: هو أمر إباحة. وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: تعلمت الطب من كثرةِ أمراض رسول الله صلى الله عليه وسلم وما ينعت له[٧٣]، وقال عليه الصلاة والسلام لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: "كل من هذا، فإنه أوفق لك من هذا"[٧٤].

265- ومن ذهب إلى أن تركه أفضل، احتج بقوله عليه الصلاة والسلام: "يدخل الجنة سبعون ألفًا بلا حساب"، ثم وصفهم فقال: "لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون"[٧٥]. وهذا لا ينافي التداوي؛ لأنه قد كان أقوام يكتوون لئلا يمرضوا، ويسترقون لئلا تصيبهم نكبة، وقد كوى عليه

---

٧٠ أي: الأسباب. وفي الأصل: وضع

٧١ أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى.

٧٢ رواه البخاري "6578" عن ابن مسعود رضي الله عنه.

٧٣ رواه أحمد "6716"، وأبو نعيم "2/ 49"، والحاكم "4/ 11".

٧٤ رواه أبوداود "3856"، والترمذي "2038"، وابن ماجه "3442" عن أم المنذر الأنصارية رضي الله عنها.

٧٥ رواه البخاري "5752"، ومسلم "220" عن ابن عباس رضي الله عنه.

الصلاة والسلم أسعد بن زرارة[76]، ورخص في الرقية في الحديث الصحيح[77]، فعلمنا أن المراد ما أشرنا إليه.

266- وإذا عرفت الحاجة إلى إسهال الطبع، رأيت أن أكل البلوط مما يمنع عنه علمي، وشرب ماء التمر هندي أوفق، وهذا طب، فإذا لم أشرب ما يوافقني، ثم قلت: اللهم! عافني! قالت لي الحكمة: أما سمعت: "اعقلها وتوكل"[78]؟! اشرب! وقل: عافني! ولا تكن كمن بين زرعه وبين النهر كف من تراب، تكاسل أن يرفعه بيده، ثم قام يصلي صلاة الاستسقاء!

267- وما هذه الحالة إلا كحال من سافر على التجريد، وإنما سافر على التجريد؛ لأنه يجرب ربه عز وجل، هل يرزقه أو لا؟ وقد تقدم الأمر إليه:

{وَتَزَوَّدُوا} [البقرة: 197] ، فقال: لا أتزود! فهذا هالك قبل أن يهلكه، ولو جاء وقت صلاة وليس معه ماء، لِيمَ على تفريطه، وقيل له: هلا استصحبت الماء قبل المفازة!

268- فالحذر الحذر من أفعال أقوام دققوا، فمرقوا عن الأوضاع الدينية، وظنوا أن كمال الدين بالخروج عن الطباع، والمخالفة للأوضاع، ولولا قوة العلم والرسوخ فيه، لما قدرت على شرح هذا ولا عرفته. فافهم ما أشرت إليه، فهو أنفع لك من كراريس تسمعها، وكن مع أهل المعاني لا مع أهل الحشو.

سمعت بعض من كنت أظن فيه كثرة الخير(ص153):

لقد سمعت بعض من كنت أظن فيه كثرة الخير، وهو يقول في ليالي موته: ربي هو ذا يظلمني! فلم أزل منزعجًا مهتمًا بتحصيل عدةٍ ألقى بها ذلك اليوم.

كيف، وقد روي أن الشيطان يقول لأعوانه في تلك الساعة: عليكم بهذا، فإن فاتكم، فلم تقدروا عليه؟!

---

[76] رواه الترمذي "2050"، وابن ماجه "3492"، وأحمد "4/ 65"، و "5/ 3678". قلت: وقد وقع في الأصل سعد بن زرارة. وهو خطأ.
[77] رواه البخاري "5741"، ومسلم "2193" عن عائشة رضي الله عنها ".
[78] رواه الحاكم "3/ 623"، وابن حبان "731".

438- وأي قلب يثبت عند إمساك النفس، والأخذ بالكظم[79]، ونزع النفس، والعلم بمفارقة المحبوبات إلى ما لايدري ما هو، وليس في ظاهره إلا القبر والبلاء.

439- فنسأل الله -عز وجل- يقينًا يقينًا شر ذلك اليوم، لعلنا نصبر للقضاء أو نرضى به، ونرغب إلى مالك الأمور في أن يهب لنا من فواضل نعمه على أحبابه، حتى يكون لقاؤه أحب إلينا من بقائنا، وتفويضنا إلى تقديره أشهى لنا من اختيارنا.

ونعوذ بالله من اعتقاد الكمال لتدبيرنا، حتى إذا انعكس علينا أمر، عدنا إلى القدر بالتسخط، وهذا هو الجهل المحض والخذلان الصريح، أعاذنا الله منه.

في أحوال الناس مع الذنوب:

كان لعلي -رضي الله عنه- أربع حرائر، وسبع عشرة سرية، مات عنهن. وقبل هذه الأمة، فقد كان لداود عليه السلام مئة امرأة، ولسليمان عليه السلام ألف امرأة.

فمن ادعى خللا في هذه الطرق، أو أن هؤلاء آثروا هواهم، وأنفقوا بضائع العمر في هذه الأغراض، وغيرها أفضل، فقد ادعى على الكاملين النقصان، وإنما هو الناقص في فهمه لا هم.

وقد كان سفيان الثوري إذا سافر، ففي سفرته حمل مشوي وفالوذج، وكان حسن المطعم، وكان يقول: إن الدابة إذا لم تحسن إليها، لم تعمل.

422- وهذه الفنون التي أشرت إليها، إن قصدت للحاجة إليها، أو لقضاء وطر النفس منها، أو لبلوغ الأغراض الدينية والدنيوية منها: فكله قصد صحيح، لا يعكر عليه من يقوم ويقعد في ركعات لا يفهم معناها، وفي تسبيحات أكثر ألفاظها ردية.

423- كلا، ليس إلا العلم الذي هو أفضل الصفات، وأشرف العبادات، وهو الآمر بالمصالح، والناطق بالنصائح. ثم منفعة العلم معروفة، وزهد الزاهد لا يتعدى عتبة بابه، وقد قال صلى الله عليه

---

[79] الكاظم: مخرج النفس.

وسلم: "لأن يهدي الله بك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس"[80].

424- ثم اعتبر فضل الرسل على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والجوارح على التي لا تصيد، والطين الذي يعمل منها ما ينتفع به على الطين في المقلع[81].

وغاية العلماء تصرفهم بالعلم في المباح، وأكثر المتزهدين جهلة، يستعبدهم تقبيل اليد لأجل تركهم ما أبيح.

فكم فوتت العزلة علما يصلح به أصل الدين، وكم أوقعت في بلية هلك بها الدين، وإنما عزلة العالم عن الشر فحسب، والله الموفق.

لنفسي: إن غلبت هذه، فأنت أنت، وإذا أتيت هذه، فمن أنت؟! وذكرتها حالة أقوام كانوا يفسحون لأنفسهم في مسامحة، كيف انطوت أذكارهم، وتمكنت عقوبة الإعراض عنهم منهم، فارعوت ورجعت عما همت به، والله الموفق.

66- فصل:لا يزيد المؤمن عمره إلا خيرا:

341- دعوت يوما فقلت: اللهم! بلغني آمالي من العلم والعمل، وأطل عمري لأبلغ ما أحب من ذلك. فعارضني وسواس من إبليس، فقال: ثم ماذا؟ أليس الموت؟ فما الذي ينفع طول الحياة؟! فقلت له: يا أبله! لو فهمت ما تحت سؤالي، علمت أنه ليس بعبث. أليس في كل يوم يزيد علمي ومعرفتي، فتكثر ثمار غرسي، فأشكر يوم حصادي؟! أفيسرني أنني مت منذ عشرين سنة؟! لا والله؛ لأني ما كنت أعرف الله تعالى عشر معرفتي به اليوم. وكل ذلك ثمرة الحياة، التي فيها اجتنيت أدلة الوحدانية، وارتقيت عن حضيض[82] التقليد إلى يفاع[83] البصيرة، واطلعت على علوم زاد بها قدري، وتجوهرت بها نفسي، ثم زاد غرسي لآخرتي، وقويت تجارتي في إنقاذ المباضعين[84] من المتعلمين. وقد قال الله لسيد المرسلين: {وقل رب زدني علما} [طه: 114] . وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه،

---

[80] رواه الطبراني عن أبي رافع. انظر: كنز العمال "28802".
[81] المقلع: المكان الذي تقلع منه الحجارة، ويستعان على ذلك بالماء، فيكثر الطين في هذه المقالع.
[82] الحضيض: الأرض المنخفضة.
[83] اليفاع: ما ارتفع عن الأرض.
[84] المباضعين: الذين يضاربون بأموالهم.

عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه قال: "لا يزيد المؤمن عمره إلا خيرا"[٨٥]. وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن من السعادة أن يطول عمر العبد، ويرزقه الله عز وجل الإنابة"[٨٦].

فيا ليتني قدرت على عمر نوح، فإن العلم كثير، وكلما حصل منه حاصل، رفع ونفع.

348- ولقد طرقتني حالة أوجبت التشبث ببعض الأسباب؛ إلا أنه كان من ضرورة ذلك لقاء بعض الظلمة، ومداراته بكلمة، فبينا أنا أفكر في تلك الحال، دخل علي قارئ، فاستفتح، فتفاءلت بما يقرأ، فقرأ: {ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون} [هود: 113] ، فبهت من إجابتي على خاطري، وقلت لنفسي: اسمعي! فإنني طلبت النصر في هذه المداراة، فأعلمني القرآن أنني إذا ركنت إلى ظالم، فاتني ما ركنت لأجله من النصر. فيا طوبى لمن عرف المسبب، وتعلق به، فإنها الغاية القصوى، فنسأل الله أن يرزقنا.

طلب العزلة

48- فصل:إصلاح البدن سبب لإصلاح الدين:

247- رأيت نفسي كلما صفا فكرها، أو اتعظت بدارج[٨٧]، أو زارت قبور الصالحين، تتحرك همتها في طلب العزلة، والإقبال على معاملة الله تعالى.

فقلت لها يومًا وقد كلمتني في ذلك: حدثيني، ما مقصودك؟! وما نهاية مطلوبك؟! أتراك تريدين مني أن أسكن قفرًا لا أنيس به، فتفوتني صلاة الجماعة، ويضيع مني ما قد علمته لفقد من أعلمه، وأن آكل الجشب[٨٨] الذي لم أتعوده، فيقع نضوي[٨٩] طلحًا[٩٠] في يومين، وأن ألبس الخشن الذي لا أطيقه، فلا أدري من كرب محمولي من أنا، وأن أتشاغل عن طلب ذرية تتعبد بعدي، مع بقاء القدرة على

---

[٨٥] مسلم "2065".

[٨٦] رواه أحمد "3/ 332"، والحاكم "4/ 240" وصححه ووافقه الذهبي.

[٨٧] الدارج: الشخص المتوفى.

[٨٨] الجشب: الطعام الخشن.

[٨٩] نضوي: جسمي.

[٩٠] طلحًا: مريضًا.

الطلب؟! بالله، ما نفعني العلم الذي بذلت فيه عمري إن وافقتك!

248- وأنا أعرفك غلط ما وقع لك بالعلم: اعلمي أن البدن مطية، والمطية إذا لم يرفق بها، لم تصل براكبها إلى المنزل، وليس مرادي بالرفق الإكثار من الشهوات، وإنما أعني أخذ البلغة[٩١] الصالحة للبدن، فحينئذ يصفو الفكر، ويصح العقل، ويقوى الذهن.

ألا ترين إلى تأثير المعوقات عن صفاء الذهن في قوله عليه الصلاة والسلام: "لا يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان"، وقاس العلماء على ذلك الجوع، وما يجري مجراه من كونه حاقنًا أو حاقبًا[٩٢]؟! وهل الطبع إلا ككلب يشغل الآكل، فإذا رمى له ما يتشاغل به، طاب له الأكل؟!

249- فأما الانفراد والعزلة، فعن الشر لا عن الخير، ولو كان فيها لك وقع خير، لنقل ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه رضي الله عنهم.

250- هيهات! لقد عرفت أن أقوامًا دام بهم التقلل واليبس إلى أن تغير فكرهم، وقوي الخلط السوداوي[٩٣] عليهم، فاستوحشوا من الناس! ومنهم من اجتمعت له من المآكل الردية أخلاط مجة[٩٤]، فبقي اليوم واليومين والثلاثة لا يأكل، وهو يظن ذلك من أمداد اللطف، وإذا به من سوء الهضم!

وفيهم من ترقى به الخلط إلى رؤية الأشباح، فيظنها الملائكة!!

251- فاللهَ اللهَ في العلم! واللهَ اللهَ في العقل! فإن نور العقل لا ينبغي أن يتعرض لإطفائه، والعلم لا يجوز الميل إلى تنقيصه، فإذا حفظا، حفظا وظائف الزمان، ودفعا ما يؤذي، وجلبا ما يصلح، وصارت القوانين مستقيمة في المطعم والمشرب والمخالطة.

252- فقالت لي النفس: فوظف لي وظيفة، واحسبني مريضًا قد كتبت له شربة. فقلت لها: قد دللتك على العلم، وهو طبيب ملازم، يصف كل لحظة لكل داء يعرض دواء يلائم.

253- وفي الجملة: ينبغي لك ملازمة تقوى الله عز وجل في المنطق والنظر وجميع الجوارح، وتحقق

---

[٩١] البلغة: ما يسد الرمق.
[٩٢] الحاقن: بالبول، والحاقب: بالغائط.
[٩٣] السوداوي: المصاب باضطراب مصحوبة بالحزن العميق المزمن، والتشاؤم الدائم.

الحلال في المطعم، وإيداع كل لحظة ما يصلح لها من الخير، ومناهبة الزمان في الأفضل، ومجانبة ما يؤدي إلى ما يؤدي من نقص ربح، أو وقوع خسران! ولا تعملي عملًا إلا بعد تقديم النية.

وتأهبي لمزعج الموت، فكان قد[٩٥]، وما عندك من مجيئة في أي وقت يكون! الصواب، لا على مقتضى الهوى، فإن إصلاح البدن سبب لإصلاح الدين!

ودعي الرعونة التي يدل عليها الجهل لا العلم، من قول النفس: فلان يأكل الخل والبقل! وفلان لا ينام الليل!

فاحملي ما تطيقين وما قد علمت قوة البدن عليه، فإن البهيمة إذا أقبلت إلى نهر أو ساقية، فضربت لتقفز، لم تفعل حى تزن نفسها، فإن علمت فيها قوة طفرت، وإن علمت أنها لا تطيق، لم تفعل، ولو قتلت. وليس كل الأبدان تتساوى في الإطاقة، ولقد حمل أقوام من المجاهدات في بداياتهم أشياء أوجبت أمراضًا قطعتهم عن خير، وتسخطت قلوبهم بوقوعها، فعليك بالعلم، فإنه شفاء من كل داء، والله الموفق.

40- فصل: فضل العلم وفوائده:

210- لما رأيت رأي نفسي في العلم حسنًا، فهي تقدمه على كل شيء، وَتَعْتَقِدُ الدليل، وتفضل ساعة التشاغل به على ساعات النوافل، وتقول: أقوى دليل لي على فضله على النوافل: أني رأيت كثيرًا ممن شغلتهم نوافل الصلاة والصوم عن نوافل العلم عاد ذلك عليهم بالقدح في الأصول، فرأيتها في هذا الاتجاه على الجادة السليمة والرأي الصحيح.

211- إلا أني رأيتها واقفة مع صورة التشاغل بالعلم، فصحت بها: فما الذي أفادك العلم؟! أين الخوف؟! أين القلق؟! أين الحذر؟! أو ما سمعت بأخبار أخيار الأحبار في تعبدهم واجتهادهم؟!

أما كان الرسول صلى الله عليه وسلم سيد الكل، ثم إنه قام حتى ورمت قدماه[٩٦]؟!

---

[٩٤] المجة: التي ترفضها النفس ولا تقبلها عادة.
[٩٥] فكأن قد: كأن قد جاء الموت.
[٩٦] رواه البخاري "1130"، ومسلم "2819"، عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، وتمامه: فيقال له؟ فيقول: "أفلا أكون عبدًا شكورًا".

أما كان أبو بكر رضي الله عنه شجي النشيج، كثير البكاء؟!

أما كان في خد عمر رضي الله عنه خطان من آثار الدموع؟!

أما كان عثمان رضي الله عنه يختم القرآن في ركعة؟!

أما كان علي رضي الله عنه يبكي بالليل في محرابه حتى تخضل لحيته بالدموع، ويقول: يا دنيا غري غيري؟!

أما كان الحسن البصري يحيا على قوة القلق.

أما كان سعيد بن المسيب ملازمًا للمسجد، فلم تفته صلاة في جماعة أربعين سنة؟!

أما صام الأسود بن يزيد[٩٧] حتى اخضر واصفر؟!

أما قالت ابنة الربيع بن خثيم له: ما لي أرى الناس ينامون وأنت لا تنام؟!

فقال: إن أباك يخاف عذاب البيات؟!

أما كان أبو مسلم الخولاني[٩٨] يعلق سوطًا في المسجد يؤدب به نفسه إذا فتر؟!

أما صام يزيد الرقاشي[٩٩] أربعين سنة، وكان يقول: وا لهفاه! سبقني العابدون، وقطع بي؟!

أما صام منصور بن المعتمر[١٠٠] أربعين سنة؟!

أما كان سفيان الثوري يبكي الدم من الخوف؟!

أما كان إبراهيم بن أدهم يبول الدم من الخوف؟!

---

[٩٧] أبوعمرو النخعي الكوفي: الإمام القدوة، وهو ابن أخي علقمة بن قيس، وخال إبراهيم النخعي، فهؤلاء أهل بيت من رؤوس العلم والعمل، كان الأسود مخضرمًا، أدرك الجاهلية والإسلام، توفي سنة "75هـ".

[٩٨] عبد الله بن ثوب الخولاني: تابعي فقيه، عابد زاهد، ولد باليمن، أسلم قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره، وهاجر إلى الشام، ووفاته بدمشق، وقبره بداريا، توفي سنة "62هـ".

[٩٩] يزيد بن أبان الرقاشي البصري القاص الزاهد أبو عمرو، توفي بين سنتي "110-120هـ".

[١٠٠] في حاشية الأصيل: في هامش الهندية: الروابي، بدل الورود.

أما تعلمين أخبار الأئمة الأربعة في زهدهم وتعبدهم، أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد؟!

احذري من الإخلاد إلى صورة العلم مع ترك العمل به، فإنها حالة الكسالى الزمنى:

وخذ لك منك على مُهْلَةٍ ... ومقبل عيشك لم يدبر

وخف هجمةً لا تقيل العثار ... وتطوي الورود على المصدر

ومثل لنفسك أي الرعيل ... يضمك في حلبة المحشر

«24- فصل:العزلة عن الشر لا عن الخير.

101- ما زالت نفسي تنازعني -بما يوجبه مجلس الوعظ، وتوبة التائبين، ورؤية الزاهدين- إلى الزهد، والانقطاع عن الخلق، والانفراد بالآخرة، فتأملت ذلك، فوجدت عمومه من الشيطان فإن الشيطان يرى أنه لا يخلو لي مجلس من خلق لا يحصون، يبكون، ويندبون على ذنوبهم، ويقوم في الغالب جماعة، يتوبون، ويقطعون شعور الصِّبَا، وربما اتفق خمسون1 ومئة، ولقد تاب عندي في بعض الأيام أكثر من مئة، وعمومهم صبيان، قد نشئوا على اللعب والانهماك في المعاصي.

102- فكان الشيطان -لبعد غوره في الشر- رآني أجتذب إلي من أجتذب منه، فأراد أن يشغلني عن ذلك بما يزخرفه، ليخلو هو بمن أجتذبه من يده.

ولقد حسن لي الانقطاع عن المجالس، وقال: لا يخلو من تصنع الخلق، لا رذيلة، وأما أن أقصد الناس بما لا يجوز في الشرع، فمعاذ الله.

103- ثم رأيته يريني في التزهد قطع أسباب ظاهرة الإباحة من الاكتساب! فقلت له: فإن طاب لي الزهد، وتمكنت من العزلة، فنفد ما بيدي، أو احتاج بعض عائلتي ألست أعود القهقهرى؟! فدعني أجمع ما يسد خلتي، ويصونني عن مسألة

الناس؛ فإن مد عمري، كان نعم السبب، وإلا، كان للعائلة، ولا أكون كراكب أراق ماءه لرؤية سراب، فلما ندم وقت الفوات، لم ينتفع بالندم. وإنما الصواب توطئه المضجع قبل النوم، وجمع المال الساد

للخلة قبل الكبر، أخذ بالحزم، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "لأن تترك ورثتك أغنياء خير لك من أن تتركهم عالة يتكففون الناس"[١٠١]، وقال: "نعم المال الصالح للرجل الصالح"[١٠٢].

104- وأما الانقطاع، فينبغي أن تكون العزلة عن الشر لا عن الخير، والعزلة عن الشر واجبة على كل حال، وأما تعليم الطالبين، وهداية المريدين، فإنه عبادة العالم.

105- وإن من تفضيل بعض العلماء إيثاره للتنقل بالصلاة والصوم عن تصنيف كتاب، أو تعليم علم ينفع؛ لأن ذلك بذر يكثر ريعه، ويمتد زمان نفعه.

106- وإنما تميل النفس إلى ما يزخرفه الشيطان من ذلك لمعنيين: أحدهما: حب البطالة؛ لأن الانقطاع عندها أسهل، والثاني: لحب المدحة، فإنها إذا توسمت بالزهد، كان ميل العوام إليها أكثر.

107- فعليك بالنظر في السرب الأول، فكن مع السرب المتقدم، وهم الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم، فهل نقل عن أحد منهم ما ابتدعه جهلة المتزهدين والمتصوفة، من الانقطاع عن العلم؟ والانفراد عن الخلق، وهل كان شغل الأنبياء إلا معاناة الخلق؟ وحثهم على الخير، ونهيهم عن الشر؟!

إلا أن ينقطع من ليس بعالم بقصد الكف عن الشر، فذاك مرتبة المحتمي، يخاف شر التخليط3، فأما الطبيب العالم بما يتناول، فإنه ينتفع بما يناله.

---

[١٠١] رواه البخاري "5354"، ومسلم "1628" عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

[١٠٢] رواه أحمد "4/ 197"، والبخاري في الأدب المفرد "299" عن عمرو بن العاص رضي الله عنه.